مسابقة

فاستبقوا الخيرات

الحلقة الثامنة

المستوى الأول

إعداد

اللجنة العلمية

أولا: التفسير

تفسير سورة يوسف (٨٨-١١١)

فضيلة الإحسان وحُسن جزائه

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ يوسف: ٨٨-٩٢

معاني الكلمات:

الكلمة	معناها
مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ	أصابنا الجدب والقحط والمجاعة
مُّزْجَىٰةٍ	رديئة مدفوعة لا تقبل
يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ	يثيبُهم على إحسانهم
ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا	فضلك علينا
لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ	لا عتب عليكم ولا لوم

المعنى العام للآيات:

ضاق أبناء يعقوب من بكاء أبيهم، واشتد بهم البلاء واشفقوا على أبيهم، فأنصتوا له وأصغوا آذانهم لما يوصيهم به ويطلبه منهم، فقاموا للتفتيش عن يوسف وأخيه كما أمرهم أبوهم، وتأهبوا للرحيل وأعدوا عدتهم متجهين إلى ديار مصر للمرة الثالثة إلى أن دخلوا على يوسف وهو في

مجلس إمارته وفي تمام ملكه وعزته ومنعته فقالوا: { **يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ** ...} فشكوا إليه حالهم وما نزل بهم من الجوع والفاقة والفقر والحاجة، ثم اعتذروا له عما في أيديهم من بضاعة قليلة ورديئة فقالوا: { **وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ** }، وإنما قدّموا ذلك ليكون ذريعةً إلى إسعاف مرامهم ببعث الشفقةِ وهز العطفُ والرأفة وتحريكُ سلسلة المرحمة ثم قالوا {**فَأَوْفِ لَنَا الكيل**} أي أتمّمْه لنا {**وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا**} بردّ أخينا إلينا.

قاله الضحاك وابن جريج وهو الأنسبُ بحالهم نظراً إلى أمر أبيهم أو بالإيفاء أو بالمسامحة وقَبول المُزجاة أو بالزيادة على ما يساويها تفضلاً، {**إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**} بثواب الدنيا والآخرة[1].

ولما ذكر إخوة يوسف له ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب، تذَكَّر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولَديه، مع ما هو فيه من المُلك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء، فتعرف إليهم، وقال: { **هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ** }؟ يعني: كيف فرقوا بينه وبينه، والاستفهام هنا بمعنى التذكير والتوبيخ.

وأما يوسف فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه، فلعله والله أعلم قولهم: {إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ} أو أن الحادث الذي فرَّق بينه وبين أبيه، هم السبب فيه، والأصل الموجب له.

ثم قال لهم: { **إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ** } أي: إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، **كما قال بعض السلف**: كل من عصى الله فهو جاهل، وقرأ: {ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة} إلى قوله: {إن ربك من بعدها لغفور رحيم} [النحل: **١١٩**][2].

فعند ذلك عرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف فقالوا: { **أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ** }؟ والاستفهام يدل على الاستعظام، أي: إنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: { **أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا**} أي: بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة، {**إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ**

---

[1] انظر مؤتمر سورة يوسف (٢/٤٤٨)، و تفسير القرطبي (٩/ ٢٥٢)، وتفسير السعدي (ص: ٤٠٤).

[2] تفسير ابن كثير(٤/ ٤٠٨)، و تفسير القرطبي (٩/ ٢٥٥)، وتفسير السعدي (ص: ٤٠٤).

وَيَصْبِرْ} أي: يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها {**فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**} فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

{**قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا**} أي: فضَّلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، والتبعيد لك عن أبيك، فآثرك الله تعالى ومكَّنك مما تريد {**وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ**} وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف.

ف {**قَالَ**} لهم يوسف عليه السلام، كرما وجودا: {**لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**} أي: لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم {يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} فسمح لهم سماحا تاما، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان، الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين[1].

بعض المسائل والأحكام المتعلقة بالآيات:

*** لماذا وصف أخوة يوسف بضاعتهم بأنها مزجاة؟**

إنما قالو مزجاة لأنهم:

- ربما عرضوها على التجار عندهم في فلسطين فلم يقبلوها.
- أو أنهم أرادوا أنها مزجاة اليوم في مصر لرداءتها أو لكونها غير لازمة لأسواق مصر لأن العروض قد تكون مقبولة في بلد دون بلد وفي وقت دون وقت.

*** قد تقدم قول يعقوب عليه السلام: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} فهل في قول أبنائه ما يدل على التسخط، وما ينافي التوكل حين شكوا ما نزل بهم من ضر وبأس؟**

الجواب: لا... بل في قولهم: {**مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ**...} دليل على جواز الشكوى عند الضر، أي الجوع، بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره أن يبدي حالته إلى من يرجو منه النفع، كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه، ولا يكون ذلك قدحا في التوكل، وهذا ما لم يكن التشكي على سبيل التسخط، والصبر والتجلد في النوائب أحسن، والتعفف عن المسألة أفضل، وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى، وذلك قول

[1] تفسير ابن كثير(٤/ ٤٠٨)، وتفسير السعدي (ص: ٤٠٤).

يعقوب: {إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون } [يوسف: ٨٦] أي: من جميل صنعه، وغريب لطفه، وعائدته على عباده، **فأما** الشكوى على غير مُشكٍ فهو السفه، إلا أن يكون على وجه البث والتسلي[١].

الفوائد والجوانب العملية:

١-جواز الشكوى إذا كان المراد بها الكشف عن الحال للإصلاح أو العلاج كأن يقول المحتاج إني جائع أو عار مثلاً وكأن يقول المريض للطبيب أشكوا ألماً في بطني أو رأسي مثلاً.

٢-تقرير مبدأ أن المعاصي لن تكون إلا نتيجة للجهل بالله تعالى وجلاله وشرائعه ووعده ووعيده.

٣-فضل التقوى والصبر وما لهما من حسن العاقبة.

٤-فضل الصفح والعفو وترك عتاب القريب إذا أساء، **ولله در القائل**:

أقلل عتاب من اسْتَرَبْتَ بوُدِه ليست تُنال مودةٌ بقتال

٥-في الآية إرشاد إلى أدب جليل، وهو تقديم الوسائل أمام المآرب، فإنها أنجح لها.

وهكذا فعل هؤلاء: قدموا ما ذكر من رقة الحال، والتمسكن، وتصغير العوض، ولم يفجئوه بحاجتهم، ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم، ببعث الشفقة، وهز العطف والرأفة وتحريك سلسلة الرحمة ومن ثَمَّ، رقّ لهم، وملكته الرحمة عليهم، فلم يتمالك أن عرّفهم نفسه[٢].

---

[١] تفسير القرطبي (٩/ ٢٥٢).

[٢] انظر محاسن التأويل للقاسمي (٦/ ٢١٢).

عودة القافلة بالبشارة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ يوسف: ٨٨ - ٩٨

معاني الكلمات:

الكلمة	معناها
فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ	خرجت العير
تُفَنِّدُونِ	تسفِّهونِ أو تجهِّلونِ أو تكذِّبونِ
ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ	خطئك وزللك القديم لا تنساه
فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا	رجع وعادَ مبصرًا بعينيه

المعنى العام للآيات:

انتهت جِلسة التذكير والمصالحة والمسامحة بين يوسف وإخوته بأن دعا لهم واستغفر لهم ثم سألهم عن حال أبيه، فذكروا له أنه ذهب بصره من كثرة البكاء عليه فأعطاهم يوسف قميصه وقال لهم:

{ **اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا** } ولأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص[1] - لما كان فيه أثر ريح يوسف، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم - أراد أن يشمه، فترجع إليه روحه، وتتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، ولله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر.

ثم دعاهم يوسف الصديق إلى جَمع الشمل بالمودة الواصلة، بعد أن فرقه إخوته بالحسد الغامر، وقال:{**وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ**} مَن تربطكم بهم قرابة دانية، وقرابة قاصية، لتتخذوا مصر دارًا وقرارًا[2].

{**وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ**...} أي: ولما خرجت عير بني يعقوب من عند يوسف متوجهة إلى يعقوب، قال يعقوبُ لمن حضر من قرابته ممن لم يخرج إلى مصر: { **إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ**}قيل: إنها هاجت ريح فحملت ريح القميص إلى يعقوب مع طول المسافة، فأخبرهم بما وجد. ثم قال:{ **لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ** } أي: تسخرون مني، وتزعمون أن هذا الكلام، صدر مني من غير شعور، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول[3].

{**قَالُواْ**} أي الحاضرون عنده {**تالله إِنَّكَ لَفِي ضلالك القديم**} من ذكر يوسف لا تنساه ولا تسلاه، لأنه كان عندهم أن يوسف قد مات وهلك ويرون أن يعقوب قد لهِج بذكره فلذلك قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم من ذكره والضلال الذهاب عن طريق الصواب[4].

{ **فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ** } أي: فلما أن جاء يعقوبَ البشيرُ من عند ابنه يوسف، وهو المبشّر برسالة يوسف فدخل على يعقوب، ثم أخرج القميص فـ{ **أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ**} يعني على وجه يعقوب

---

[1] **تنبيه مهم:** في تفسير ماهية القميص أقوال لا طائل تحتها ولا يبنى عليها أي عمل وهو كلام لا يعدو أن يكون من تخريف القصاص المولعين بكل غريب، الناشرين لكل عجيب فكم من كلام لا تستسيغه الأفهام، وكم من منقول لا يوافق العقول؛ وكتب التفسير ملأى بكل غريب وسقيم؛ فليحذره العاقل الحكيم. وانظر التحرير والتنوير (١٣/ ٥١)، وأوضح التفاسير لمحمد عبد اللطيف الخطيب (١/ ٢٩٣).

[2] انظر تفسير السعدي (ص: ٤٠٥)، وتفسير القران الكريم وإعرابه وبيانه لمحمد علي طه الدرة(٤/ ٦٥٤)، زهرة التفاسير لأبي زهرة (٧/ ٣٨٥٧).

[3] انظر تفسير الطبري (١٦/ ٢٤٨)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٦٣)، و تفسير السعدي(ص: ٤٠٥).

[4] انظر تفسير ابن كثير(٤/ ٤٠٩)، وتفسير أبي السعود (٤/ ٣٠٥)، و تفسير الخازن (٢/ ٥٥٥).

{**فَارْتَدَّ بَصِيراً**} فرجع بصيرًا بعد ما كان قد عمي وعادت إليه قوته بعد الضعف وسروره بعد الحزن، وعندها قال لهم:{ **أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ** } أي: قال يعقوب لمن كان بحضرته حينئذ من ولده: ألم أقل لكم يا بني إني أعلم من الله أنه سيردّ عليَّ يوسف، ويجمع بيني وبينه، وكنتم لا تعلمون أنتم من ذلك ما كنت أعلمه، لأن رؤيا يوسف كانت صادقة، وكان الله قد قضى أن أخِرَّ أنا وأنتم له سجودًا، فكنت مُوقنًا بقضائه[1].

ف{**قَالُوا**} يعني: أبناء يعقوب بلهجة الاعتذار والتوبة وقد تراكمت على وجوههم حمرة الخجل وصفرة الوجل{**يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ**} فيما فعلنا به، فقد اعترفنا بذنوبنا، فرد عليهم أبوهم بصيغة تشعر بعفوه عنهم فقال: {**سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** } أي: سوف أسأل ربي أن يعفو عنكم ذنوبكم التي أذنبتموها فيّ وفى يوسف[2].

بعض المسائل والأحكام المتعلقة بالآيات:

*** في قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف { إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ} ما الفرق بين لفظتي الخاطئ والمخطئ؟**

الجواب أن: المخطئ من أراد الصواب، فصار إلى غيره، والخاطئ: من تعمَّد لما لا ينبغي.

قال الأصمعي: يقال للرجل إذا أتى الذنب متعمدًا، قد خطئ يخطأ خِطْأ مكسور الخاء، ساكنة الطاء، وهو خاطئ.

ولهذا فإن في قولهم: { **إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ**} اعتراف منهم على تعمدهم الفعل المجانب للصواب على ما مر من الأحداث التي قاموا بها من بداية القصة.

***لماذا أخَّر يعقوب عليه السلام الاستغفار لأولاده ولم يستغفر لهم في الحال؟**

اختلف أهل العلم، في الوقت الذي أخَّر الدعاء إليه يعقوبُ لولده بالاستغفار لهم من ذنبهم:

فقال بعضهم: أخَّر ذلك إلى السَّحَر أو وقت صلاة الليل.

وقيل: إنه أخَّر استغفاره لهم إلى وقت تكون الإجابة فيه أرجى.

---

[1] انظر تفسير الطبري (١٦/ ٢٦٠)، و تفسير الخازن (٢/ ٥٥٥).

[2] انظر تفسير الطبري (١٦/ ٢٦١)، و مؤتمر سورة يوسف (٢/ ٥٦٩).

وقيل: أخَّر ذلك إلى ليلة الجمعة. وقيل غير ذلك[1].

الفوائد والجوانب العملية:

١- من خُلُق المعتذر الصادق أن يطلب التوبة من الله، ويعترف على نفسه ويطلب الصفح ممن تضرر منه.

٢- بر الوالدين وتبجيلهما وتكريمهما واجب، ومن ذلك المسارعة بالبشارة لهما فيما يدخل السرور عليهما.

٣-مهما يحصِّل المرء من مراتب العلم فليعلم أن علمه إنما هو من عند الله عز وجل، وهذا ما فعله يعقوب عليه السلام { **أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ** }.

٤- الاعتراف بالذنب والندم عليه شرط من شروط التوبة، { **قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ**}. والتوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي، فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يقلع عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبدا. فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته.

وإن كانت تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها.

فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها[2].

---

[1] انظر تفسير الطبري (١٦/ ٢٦١-٢٦٣)، زاد المسير لابن الجوزي (٤/ ٢٨٧).

[2] رياض الصالحين للنووي (ص: ٣٣).

الرحلة الأخيرة إلى مصر واجتماع الشمل

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ * رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ يوسف: ٩٩ - ١٠١

معاني الكلمات:

الكلمة	معناها
ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ	ضم إليه.
ٱلْعَرْشِ	سرير الملك.
وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ	سجدوا له تحية وتعظيماً.
تَأْوِيلُ رُءْيَىَ	ما آلت إليه رؤياي.
نَّزَغَ	أفسد، وأوقع.
فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ	خالقهما على غير مثال سابق.
أَنتَ وَلِىِّۦ	مُتَولي أمري في الحياتين الدنيا والآخرة.

المعنى العام للآيات:

لما جاءت البشرى إلى يعقوب عليه السلام وعادت إليه قوته بعد ضعفه وسروره بعد حزنه، أمر أبناءه بالتجهز والتهيؤ في معدات السفر تسرعًا وشوقًا للقاء ولده يوسف، ثم ارتحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أُخبر يوسف باقترابهم خرج لتلقيهم، فلما وصلوا إليه، و{**دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ**} أي: ضمهما إليه، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام والتبجيل والإعظام شيئا عظيما، {**وَقَالَ**} لجميع أهله: {**ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ**} من جميع المكاره

والمخاوف، فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة[1].

ولما انتهوا إلى القصر ودخلوا {**وَرَفَعَ**} يوسف {**أَبَوَيْهِ**} أمه وأباه {**عَلَى الْعَرْشِ**} سرير الملك {**وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا**} تحية وتشريفاً.

وهنا قال يوسف {**وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا**} إذ رأى في صباه أن أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رآهم له ساجدين[2].

وإنما كان ذلك السجود لشرَفه، كما سجدت الملائكة لآدم لشرفه، وليس بسجود عبادةٍ[3].

ثم أخذ يوسف عليه السلام في ذكر جملة من نعم الله عليه، فقال: {**وَقَدْ أَحْسَنَ بِي**} إحسانا جسيما {**إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ**} وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الجب، لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إلي.

ولم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: "أحسن بكم" بل قال {**أَحْسَنَ بِي**} جعل الإحسان عائدًا إليه، فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده، ويهب لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب.

وقوله: {**مِنْ بَعْدِ أَنْ نزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي**} يعني: من بعد أن أفسد ما بيني وبينهم.

وهذا من تمام لطف الله جل جلاله بعبيده فهو سبحانه {**لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ**} يوصِل برَه وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، {**إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ**} الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم، و{**هُوَ الْعَلِيمُ**}بمصالح خلقه لا يخفى

---

[1] تفسير السعدي (ص: ٤٠٥).

[2] أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٦٤٥).

[3] تفسير الطبري (١٦/ ٢٧٠).

عليه مبادي الأمور وعواقبها، {**الْحَكِيمُ**} في تدبيره، وفي وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها[1].

ولما جمع الله شمل يوسف عليه الصلاة والسلام بأبيه وإخوته وأقر عينه برؤيتهم، وبسط عليه من الدنيا ما بسط من الكرامة، ومكَّنه في الأرض، علِم أن نعيم الدنيا زائل سريع الفناء لا يدوم فسأل الله حسن العاقبة والخاتمة الصالحة فقال: {**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ**} يعني: من ملك مصر {**وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ**} يعني من عبارة الرؤيا، تعديدًا لنعم الله عليه، وشكرًا له عليها {**فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**} يا فاطر السموات والأرض، يا خالقها وبارئها {**أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**} يقول: أنت وليي في دنياي على من عاداني وأرادني بسوء بنصرك، وتغذوني فيها بنعمتك، وتليني في الآخرة بفضلك ورحمتك.

{**تَوَفَّنِي مُسْلِمًا**} اقبضني إليك مسلمًا {**وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**} أي: وألحقني بصالح آبائي إبراهيم وإسحاق ومن قبلهم من أنبيائك ورسلك[2].

بعض المسائل والأحكام المتعلقة بالآيات:

*** لماذا ذكر يوسف عليه السلام خروجه من السجن ولم يذكر خروجه من الجب؟**

ذكر إخراجه من السجن وعدل عن إخراجه من الجب صفحاً عن ذكر ما تعلق بقول إخوته، وتناسيًا لما جرى منهم إذ قال: {**لَا تَثْرَيبَ عَلَيكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ**} وتنبيهاً على طهارة نفسه، وبراءتها مما نسب إليه من المراودة .

وقد قيل إن وجه عدم ذكر إخراجه من الجب أن المنة كانت في إخراجه من السجن أكبر من المنة في إخراجه من الجب، لأن دخوله الجب كان بحسد إخوته ودخوله السجن بسبب تهمة المرأة فإخراجه من السجن كان لزوال التهمة عنه، وكان ذلك من أعظم نعمه سبحانه عليه[3].

---

[1] تفسير الطبري (١٦/ ٢٧٧)، وتفسير السعدي(ص: ٤٠٥).

[2] وانظر تفسير الطبري (١٦/ ٢٧٨)، وتفسير ابن كثير(٤/ ٤١٤)، وتفسير الخازن (٢/ ٥٥٧).

[3] تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٥/ ٣٤٣)، وفتح البيان في مقاصد القرآن لصديق خان (٦/ ٤٠٤).

*** هل في قبول يوسف عليه السلام سجود أبيه له ما يخالف ما جاء من إكرام الوالدَين؟**

الجواب: لا، لأن السجود كان تحية الملوك وأضرابهم آنذاك، ولم يكن يومئذ ممنوعا في الشرائع وإنما منعه الإسلام لغير الله تحقيقا لمعنى مساواة الناس في العبودية والمخلوقية. ولذلك فلا يعد قبوله السجود من أبيه عقوقا لأنه لا غضاضة عليهما منه إذ هو عادتهم[1].

الفوائد والجوانب العملية:

١-يكره التذكير بالإساءة بعد العفو عن صاحبها.

٢- التحذير من نزغ الشيطان، ومن الذي يسعى بالوقيعة بين الأحباب؛ ليفرق بينهم، وإيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين فليحذر كل مؤمن من ذلك.

٣- رؤيا الأنبياء حق، ودينهم جميعا هو الإسلام قال تعالى:{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران: **١٩**]

٤-دعاء يوسف عليه السلام من أجمع الدعاء وأحسنه وفيه فوائد عظيمة.

قال ابن القيم في قوله: "أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ": جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستلام للرب وإظهار الافتقار إليه والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء[2].

٥-مهما أصاب المرء من رِفعة في أي أمر من أموره في دينه أو دنياه فليعلم أن ذلك كله مرجعه إلى تفضّل الله تعالى وإنعامه عليه، وليكثر من شكر الله على الدوام، فإن الشكر قيد النعمة، ومفتاح الزيادة، وثمن الجنة.

---

[1] التحرير والتنوير لابن عاشور(**١٣/ ٥٦**).

[2] الفوائد لابن القيم (ص: **٢٠١**).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ يوسف: ١٠٢ - ١٠٨

معاني الكلمات:

الكلمة	معناها
أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ	أخبار الغيب.
ذِكْرٌ	عظة وتذكير.
غَٰشِيَةٌ	عقوبة أو نقمة شديدة.
بَغْتَةً	فجأة.
سَبِيلِىٓ	دعوتي وطريقتي التي أنا عليها.
بَصِيرَةٍ	على علم ويقين.

المعنى العام للآيات:

في هذه الآيات استخلاص لمواضع العبرة من القصة أن كل ما أتى به النبي ﷺ من الأخبار إنما هي من وحي الله تعالى إليه، فيقول تعالى ذكره: هذا الخبر الذي أخبرتك به من خبر يوسف ووالده يعقوب وإخوته وسائر ما في هذه السورة { **مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ** }أي: من أخبار الغيب الذي لم تشاهده، ولم تعاينه، ولكنا نوحيه إليك ونعرّفكه، لنثبّت به فؤادك، ونشجع به قلبك، وتصبر على ما نالك من الأذى من قومك في ذات الله، وتعلم أن من قبلك من رسل الله إذ صبروا على ما نالهم فيه، وأخذوا بالعفو، وأمروا بالعُرف، وأعرضوا عن الجاهلين فازوا بالظفر، وأُيِّدوا بالنصر،

ومُكِّنوا في البلاد، وغلبوا من قَصَدوا من أعدائهم وأعداء دين الله. يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: فيهم، يا محمد، فتأسَّ، وآثارهم فقُصَّ {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ} حاضرًا عندهم ولا مشاهدا لهم {إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ} أي: على إلقائه في الجب، {وَهُمْ يَمْكُرُونَ} به، ولكنا أعلمناك به وحيًا إليك، وإنزالا عليك[1].

ورغم ما أطلَع الله نبيه محمد ﷺ من أنباء السابقين، مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم، ومع كل هذا ما آمن أكثر الناس؛ فقال سبحانه: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ} على إيمانهم {بِمُؤْمِنِينَ} فإن مداركهم ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة، فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم ولو عدمت الموانع، بأن كانوا يعلمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم، ودفع الشر عنهم، من غير أجر ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا[2].

ولهذا قال سبحانه: { وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ } أي: ولا تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أي: من جعالة ولا أجرة على ذلك، بل تفعله ابتغاء وجه الله، ونصحا لخلقه.

{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} أي: يتذكرون به ويهتدون، وينجون به في الدنيا والآخرة[3].

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده، فقال: {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } أي: وكم من آية في السموات والأرض لله، وعبرةٍ وحجةٍ، وذلك كالشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك من آيات السموات، وكالجبال والبحار والنبات والأشجار وغير ذلك من آيات الأرض { يَمُرُّونَ عَلَيْهَا}، يقول: يعاينونها فيمرُّون بها معرضين عنها، لا يعتبرون بها، ولا يفكرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربِّها، وأن الألوهةَ لا تنبغي إلا للواحد القهَّار الذي خلقها وخلق كلَّ شيء، فدبَّرها[4].

---

[1] تفسير الطبري (١٦/ ٢٨٣)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤١٧) بتصرف.

[2] انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٧)، وتفسير السعدي(ص: ٤٠٦)، ومؤتمر سورة يوسف (٢/ ٧٤٥).

[3] تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٧).

[4] تفسير الطبري (١٦/ ٢٨٥)، تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٨).

ومع هذا إن وجد منهم بعض الإيمان فلا {**يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**} فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده، فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب، ويفجأهم العقاب وهم آمنون، ولهذا قال: {**أَفَأَمِنُوا**} أي: الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات الله {**أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ**} أي: عذاب يغشاهم ويعمهم ويستأصلهم، {**أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً**} أي: فجأة {**وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**} أي: فإنهم قد استوجبوا لذلك، فليتوبوا إلى الله، ويتركوا ما يكون سببا في عقابهم.

ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يبين للناس طريقته وهديَه ومنهاجَه فقال له: {**قُلْ**} للناس {**هَذِهِ سَبِيلِي**} أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، {**أَدْعُو إِلَى اللَّهِ**} أي: أحثُّ الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم، وأرغِّبهم في ذلك وأرهِّبهم مما يبعدهم عنه.

ومع هذا فأنا {**عَلَى بَصِيرَةٍ**} من ديني، أي: على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية. {**وَ**} كذلك {**مَنِ اتَّبَعَنِي**} يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره، {**وَسُبْحَانَ اللَّهِ**} عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله.

{**وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**} في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصا له الدين[1].

بعض المسائل والأحكام المتعلقة بالآيات:

*** في قوله سبحانه وتعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} كيف يُجمع بين الإيمان والشرك مع أن بينهما منافاة؟**

قول أكثر المفسّرين في هذه الآية أنها نزلت في المشركين الذين آمنوا بربوبية الله وأشركوا معه غيره، قال عكرمة في قوله: {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون} [يوسف: ١٠٦]،

[1] تفسير السعدي (ص: ٤٠٦).

وقوله:{ولئن سألتهم من خلقهم} [الزخرف: ٨٧]، و {من خلق السموات والأرض ليقولن الله} "فذلك إيمانهم، وهم يعبدون غيره"[١].

فكان من إيمانهم إذا سئلوا: من خلق السموات والأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وإذا قيل لهم: من ينزل القطر؟ قالوا: الله، ثم مع ذلك يعبدون الأصنام ويشركون.

وقال ابن زيد: { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ} الآية، قال: ليس أحدٌ يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربه، وأن الله خالقه ورازقه، وهو يشرك به. ألا ترى كيف قال إبراهيم:{أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ٧٥-٧٧] ؟ قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون. قال: فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به. ألا ترى كيف كانت العرب تلبِّي تقول: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك"؟ المشركون كانوا يقولون هذا[٢].

وقال الشنقيطي: "لم أرَ من شفى الغليل في هذا الإشكال[٣]، والذي يظهر لي والله تعالى أعلم أن هذا الإيمان المقيد بحال الشرك إنما هو إيمان لُغوي لا شرعي ؛ لأن من يعبد مع الله غيره لا يصدق عليه اسم الإيمان البتة شرعًا.

أما الإيمان اللغوي فهو يشمل كل تصديق، فتصديق الكافر بأن الله هو الخالق الرازق يصدق عليه اسم الإيمان لغة مع كفره بالله، ولا يصدق عليه اسم الإيمان شرعا.

وإذا حققت ذلك علمت أن الإيمان اللغوي يجامع الشرك فلا إشكال في تقييده به، وكذلك الإسلام الموجود دون الإيمان في قوله تعالى: {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ

---

[١] صحيح البخاري (٩/ ١٥٢)، باب قول الله تعالى: {فلا تجعلوا لله أندادا} [البقرة: ٢٢]

[٢] انظر تفسير الطبري (١٦/ ٢٨٦-٢٨٩)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٣/ ٢٨٥)، وتفسير البغوي (٢/ ٥١٧)، وتفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٥/ ٢٦٢).

[٣] قد أشار إلى ذلك ابن عطية في تفسيره فقال: "وقال عكرمة ومجاهد وقتادة وابن زيد هي في كفار العرب، وإيمانهم هو إقرارهم بالخالق والرازق والمميت، فسماه إيمانا وإن أعقبه إشراكهم بالأوثان والأصنام- **فهذا الإيمان لغوي فقط من حيث هو تصديقها**". تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٢٨٥).

فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات: ١٤]، فهو الإسلام اللغوي ؛ لأن الإسلام الشرعي لا يوجد ممن لم يدخل الإيمان في قلبه، والعلم عند الله تعالى[١].

*** قوله تعالى: { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} شملت هذه الآية بعض أركان الدعوة فما هي؟**

أ- وجود منهج: {ادْعُوَاْ إِلَى اللهِ}. ب - ويقوم المنهج على العلم: {عَلَى بَصِيرَةٍ}.

ج - وجود داعية: {أَدْعُوا} {أَنَا}. د - وجود مَدْعُوِّين: {وَمَنِ اتَّبَعَنِي}[٢].

قال ابن القيم: "ولا يكون من أتباع الرسول على الحقيقة إلا من دعا إلى الله على بصيرة قال الله تعالى {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني} فقوله {أدعو إلى الله} تفسير لسبيله التي هو عليها فسبيله وسبيل أتباعه الدعوة إلى الله فمن لم يدع إلى الله فليس على سبيله"[٣].

وفي الآية دلالة على أن أصحاب النبي ﷺ والمؤمنين الذين آمنوا به مأمورون بأن يدعوا إلى الإيمان بما يستطيعون[٤].

الفوائد والجوانب العملية:

١-الهداية بيد الله وحده.

٢-دأب الداعية تذكير الناس بالقرآن تنبيهًا للغافلين وتذكيرًا للناسين، فإن الناس إذا تذكروا وعادوا إلى فطرتهم رأوا آيات الله من حولهم وتفتحت قلوبهم { **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**}.

٣-العبرة بموافقة الشريعة لا بالقلة والكثرة { **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** }.

٤-بيان ذم الغفلة وعدم التفكير في الآيات الكونية { **يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ**}.

٥-دين الإسلام قام بالحجة لا بالسيف والقوة...{ **ادْعُوَاْ إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ**}.

---

[١] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي(٢/ ٢١٩).

[٢] المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٢٤٨).

[٣] رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (ص: ٢١).

[٤] التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣/ ٦٥).

لَقَدْ كَانَ فِي قصَصِهِمْ عِبْرَةٌ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١ ﴾ يوسف: ١٠٩-١١١

معاني الكلمات:

الكلمة	معناها
ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ	يئسوا من إيمان قومهم.
وَظَنُّوٓاْ	أيقنوا.
وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا	لا يدفع عذابنا الشديد.
عِبۡرَةٞ	تذكرة.
حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ	حديثاً يختلق مكذوب.

المعنى العام للآيات:

بعد أن أثبت القرآن الكريم نبوّة النّبي محمد ﷺ بدليل إخباره عن المغيبات، ردّ الله على منكري النّبوة، فقد كان من شبه منكري نبوّته ﷺ أن الله لو أراد إرسال رسول لبعث ملكا، كما حكى القرآن عنهم: {لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً} [فصلت: ١٤][1].

فقال جل شأنه: { **وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا** } أي: وما أرسلنا، يا محمد، من قبلك إلا رجالا لا نساءً ولا ملائكة { **نُوحِي إِلَيْهِمْ** } آياتنا، بالدعاء إلى طاعتنا وإفراد العبادة لنا { **مِنْ أَهْلِ الْقُرَى** } يعني: من أهل الأمصار، دون أهل البوادي[2].

---

[1] التفسير المنير للزحيلي (١٣/ ٨٦).

[2] تفسير الطبري (١٦/ ٢٩٣).

وقوله: { **مِنْ أَهْلِ الْقُرَى**} المراد بالقرى: المدن، لا أنهم من أهل البوادي، الذين هم أجفى الناس طباعا وأخلاقا. وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعا، وألطف من أهل سوادهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون في البوادي؛ ولهذا قال تعالى: {الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله} [التوبة: **٩٧**] . وقال قتادة في قوله: { **مِنْ أَهْلِ الْقُرَى**} لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود[١].

وقال الحسن: لم يبعث الله تعالى نبياً من أهل البادية قط ، ولا من النساء ، ولا من الجن[٢].

ثم توجه الخطاب إلى منكري بعثته ونبوته ﷺ فقال: { **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ**}، والمعنى: أفلم يسر هؤلاء المشركون الذين يكذبونك، يا محمد، ويجحدون نبوّتك، وينكرون ما جئتهم به من توحيد الله وإخلاص الطاعة والعبادة له {**فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**}، إذ كذبوا رسُلنا؟ ألم نُحِلّ بهم عقوبتنا، فنهلكهم بها، وننج منها رسلنا وأتباعنا، فيتفكروا في ذلك ويعتبروا؟[٣].

وقوله: { **وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ** }، يقول تعالى ذكره: هذا فِعْلُنا في الدنيا بأهل ولايتنا وطاعتنا، أَنّ عقوبتنا إذا نزلت بأهل معاصينا والشرك بنا، أنجيناهم منها، وما في الدار الآخرة لهم خير.

وقوله: {**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**}، يقول: أفلا يعقل هؤلاء المشركون بالله حقيقةَ ما نقول لهم ونخبرهم به، من سوء عاقبة الكفر، وغِبّ ما يصير إليه حال أهله، مع ما قد عاينوا ورأوا وسمعوا مما حلّ بمن قبلهم من الأمم الكافرة المكذبةِ رسلَ ربّها؟[٤].

ثم بشَّر الله نبيّه ﷺ بالنّصر بإخباره أن نصره تعالى ينزل على رسله عليهم السّلام عند ضيق الحال واشتداد الأزمة وانتظار الفرج من الله تعالى في أحرج الأوقات إليه، فقال: {**حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ**...}، فرغم أنهم بلغوا أقوامهم رسالتهم الدّاعية إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، إلا كذّبوهم

---

[١] تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٣).

[٢] النكت والعيون للماوردي (٣/ ٨٨).

[٣] تفسير الطبري (١٦/ ٢٩٣).

[٤] تفسير الطبري (١٦/ ٢٩٥).

وتمادى أقوامهم في الطغيان والكفر والعناد، فتراخى نصرهم، حتى أيس الرّسل من إيمانهم أو من النّصر عليهم، لانهماكهم في الكفر، وظنّت (أيقنت) الأمم أن الرّسل أخلفوا فيما وعدوهم به من النّصر، وكذّبوهم فيما أخبروهم به عن الله من وعد النّصر، فجاءهم نصرنا، أي أتاهم نصر الله فجأة، فنجّي من نشاء وهم النّبي والمؤمنون، وحلّ العقاب بالمكذّبين الكافرين، { **وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا**}، أي لا يمنع عقاب الله وبطشه عن القوم الذين أجرموا، فكفروا بالله وكذّبوا رسله[1].

والآية لها نظائر كثيرة في القرآن الكريم منها ما اشتمل على وعد الله الرّسل بالنّصر: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } [غافر: **٥١**] ، وقوله تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة: **٢١**] ومنها استنجاز النّصر: {وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: **٢١٤**]

{ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**} يعني في قصص يوسف وإخوته اعتبار لذوي العقول بأن من نقل يوسف من الجب والسجن وعن الذل والرق إلى أن جعله ملكاً مطاعاً ونبياً مبعوثاً، فهو على نصر رسوله وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه قادر، وإنما الإمهال إنذار وإعذار.

{ **مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى**} أي: وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي: يكذب ويختلق، { **وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** } أي: من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير، { **وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ** } من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور على الجلية، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان: {**هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد.

[1] التفسير المنير للزحيلي (**١٣**/ **٨٨**).

فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المُبَيَّضَة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودَّة وجوههم بالصفقة الخاسرة[1].

بعض المسائل والأحكام المتعلقة بالآيات:

*** قال تعالى: { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} ما العبر المستفادة من قصة يوسف؟**

لقد حوت آيات القرآن الكريم الكثير من القصص التي فيها من العبر الكثير، وليس ثَمَّ قصة من قصص القرآن إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق و حجج بينات وإرشاد ونصح وتبصرة وتذكرة، وأحسن هذه القصص على الإطلاق قصة يوسف عليه السلام وفيها من العبر الكثير **ومن ذلك**:

١- وفيها عبرة للملوك في بسط العدل كما بسط يوسف عليه السلام، وتأمينهم أحوال الرعية كما فعل يوسف حين أحسن إليهم، وأعتقهم حين ملكهم.

٢- وفيها عبرة لأرباب التقوى فإن يوسف لمّا ترك هواه رقّاه الله إلى ما رقّاه.

٣- وفيها عبرة لأهل الهوى بأن اتباع الهوى من شدة البلاء، كامرأة العزيز لمّا تبعت هواها لقيت الضرّ والفقر.

٤- وفيها عبرة في العفو عند المقدرة، كيوسف عليه السلام حين تجاوز عن إخوته.

٥- وفيها عبرة في ثمرة الصبر، فيعقوب لما صبر على مقاساة حزنه ظفر يومًا بلقاء يوسف عليه السلام.

الفوائد والجوانب العملية:

١- بيان سنة الله تعالى في تأخر النصر على رسله وعباده المؤمنين زيادة في الإعداد والتمحيص ثم يأتي نصر الله فيعزَّ أولياء الله ويذل أعداءه.

٢-ليس القرآن مخترعا، ولا مفترى وليس فيه خرافات ولا أساطير{ **مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى**}.

٣-على الداعية ألا يستعجل في دعوته، ولا يسمح بتسرب اليأس إلى نفسه إن واجهه الناس بالإعراض أو المقاومة أو السخرية، وليوقن أن الزمان مهما طال فإن نصر الله آت لا محالة.

٤- الأمة تحتاج إلى تدبر معاني القرآن، فاجعل لنفسك وِردا ثابتًا في قراءة قصص القرآن واستخرج العبر والعظات منها فهذا هو المقصود وهذا هو صنيع أولي الألباب { **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**}.

---

[1] تفسير ابن كثير(٤/ ٤٢٧)، و النكت والعيون للماوردي (٣/ ٩٠).

ثانيًا: العقيدة
الإيمان بالقضاء والقدر

أولاً: تعريف القضاء والقدر

القَضاء: أصلُه: القَطْع والفَصْل. وقَضاءُ الشَّيْءِ: إحْكامه وإمْضاؤه والفَراغ مِنْهُ، فَيَكُونُ بِمَعْنَى الخَلْق. وكلُّ مَا أُحكِم عَملُه، أَوْ أُتِمَّ، أَوْ خُتِم، أَوْ أُدِّي، أَوْ أُوجِبَ، أَوْ أُعْلِم، أَوْ أُنفِذَ، أَوْ أُمْضيَ. فَقَدْ قُضِيَ. وَمِنْهُ القَضاء المَقْرون بالقَدَر وَالْمُرَادُ بالقَدَر: التقْدير، وَبِالْقَضَاءِ: الخَلْق.[1]

معنى القضاء والقدر في الاصطلاح: "تقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمه واقتضته حكمته، أو هو علم الله وكتابته للأشياء ومشيئته وخلقه لها"[2].

القدر: معناه أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء في القدم وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى.[3]

ومن هنا يتبين لنا أن القدر يشمل أمرين:

الأول: علم الله الأزلي الذي حكم فيه بوجود ما شاء أن يوجده.

والثاني: إيجاد ما قدر الله إيجاده على النحو الذي سبق علمه وجرى به القلم.

وللعلماء في التفرقة بين القضاء والقدر قولان:

الأول: القضاء هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل، والقدر وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق.

قال ابن حجر: القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله.[4]

الثاني: عكس القول السابق، فالقدر هو الحكم السابق، والقضاء هو الخلق.

---

[1] النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٧٨)

[2] رسائل في العقيدة للشيخ محمد بن صالح العثيمين (٣٧)، شفاء الضرر بفهم التوكل والقضاء والقدر (ص: ١).

[3] شرح النووي على مسلم (١/ ١٥٤)

[4] فتح الباري لابن حجر (١١/ ٤٧٧)

وعلى هذا فالقَضاء والقَدَر أَمْرَانِ مُتَلازِمان لَا يَنْفَك أحدُهما عَنِ الآخَر، لِأَنَّ أحدَهُما بمَنْزلة الْأَسَاسِ وَهُوَ القَدَر، والآخَرَ بِمَنْزِلَةِ البِناء وَهُوَ القَضاء، فَمَنْ رَامَ الْفَصْلَ بَيْنَهُمَا، فَقَدْ رَامَ هَدْم البِناء ونَقْضَه.[1]

ثانيًا: حكم الإيمان بالقضاء والقدر

القضاء والقدر من أركان الإيمان التي لا يصح إيمان العبد إلا بهما ومن الأدلة على ذلك:

من القرآن: قال تعالى: **{ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)}**[القمر: ٤٩]، وقال تعالى: **{وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨)}** [الأحزاب: ٣٨] وقال تعالى: **{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢)}** [الفرقان: ٢]

من السنة: ما أورده مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سؤال جبريل عليه السلام الرسولَ ﷺ عن الإيمان قَالَ: **"أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ"**[2].

وعَنْ طَاوُوسٍ، أَنَّهُ قَالَ: أَدْرَكْتُ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَقُولُونَ كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، قَالَ: وَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ، أَوِ الْكَيْسِ وَالْعَجْزِ"**[3].

وعَنْ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ بَعَثَنِي بِالحَقِّ، وَيُؤْمِنُ بِالمَوْتِ، وَبِالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، وَيُؤْمِنُ بِالقَدَرِ[4].

والمراد بهذا الحديث نفي أصل الإيمان لا نفي الكمال، فمن لم يؤمن بواحد من هذه الأربعة لم يكن مؤمنا[1].

---

[1] النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٧٨)

٢ صحيح مسلم (١).

٣ أخرجه مسلم (٢٦٥٥)، العجز هنا هو ترك ما يجب فعله والتسويف به وتأخيره عن وقته والكيس ضد العجز وهو النشاط والحذق بالأمور ومعناه أن العاجز قد قدر عجزه والكيس قد قدر كيسه. "شرح النووي على مسلم (١٦/ ٢٠٥)".

٤ أخرجه الترمذي (٢١٤٥)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٠٤).

الإجماع: قال النووي: تظاهرت الأدلة القطعيات من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى[٢].

قال ابن حجر: مذهب السلف قاطبة أن الأمور كلها بتقدير الله تعالى كما قال تعالى {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ } [الحجر: ٢١][٣].

ثالثًا: مذهب أهل السنة والجماعة في القضاء والقدر

قال أبو المظفر بن السمعاني: سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة ولم يبلغ شفاء العين ولا ما يطمئن به القلب لأن القدر سر من أسرار الله تعالى اختص العليم الخبير به وضرب دونه الأستار وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب.[٤]

قال ابن تيمية: مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: وهو أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد. وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته لا يمتنع عليه شيء شاءه؛ بل هو قادر على كل شيء ولا يشاء شيئا إلا وهو قادر عليه. وقد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم: قدر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وكتب ذلك وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء وقدرته على كل شيء ومشيئته لكل ما كان وعلمه بالأشياء قبل أن تكون وتقديره لها وكتابته إياها قبل أن تكون.[٥]

---

١ تحفة الأحوذي (٦/ ٢٩٨).

٢ شرح النووي على مسلم (١/ ١٥٥).

٣ فتح الباري لابن حجر (١/ ١١٨).

٤ فتح الباري لابن حجر (١١/ ٤٧٧)

٥ مجموع الفتاوى (٨/ ٤٤٩)

وسلف الأمة وأئمتها متفقون أيضا على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به منهيون عما نهاهم الله عنه ومتفقون على الإيمان بوعده ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة ومتفقون أنه لا حجة لأحد على الله في واجب تركه ولا محرم فعله بل لله الحجة البالغة على عباده ومن احتج بالقدر على ترك مأمور أو فعل محظور أو دفع ما جاءت به النصوص في الوعد والوعيد فهو أعظم ضلالا وافتراء على الله ومخالفة لدين الله من أولئك القدرية فإن أولئك مشبهون بالمجوس.[1]

وهذا الذي قرره أهل العلم في القدر يضع لنا عدَّة قواعد في غاية الأهمية:

الأولى: وجوب الإيمان بالقدر.

الثانية: الاعتماد في معرفة القدر على الكتاب والسنة، وترك الاعتماد في ذلك على نظر العقول ومحض القياس.

الثالثة: ترك التعمق في البحث في القدر، فبعض جوانبه لا يمكن للعقل الإنساني مهما كان نبوغه أن يستوعبها.

رابعًا: أقسام الناس في القدر

الناس في القدر ثلاث طوائف:

الأولى: الجبرية الجهمية، أثبتوا قدر الله تعالى وغلوا في إثباته حتى سلبوا العبد اختياره وقدرته، وقالوا: ليس للعبد اختيار ولا قدرة في ما يفعله أو يتركه؛ فأكله وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها بغير اختيار منه ولا قدرة.

الطائفة الثانية: القدرية المعتزلة "النفاة"، أثبتوا للعبد اختيارا وقدرة في عمله وغلوا في ذلك حتى نفوا أن يكون لله تعالى في عمل العبد مشيئة أو خلق، ونفى غلاتهم علم الله به قبل وقوعه؛ فأكل العبد وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها واقعة باختياره التام وقدرته التامة وليس لله تعالى في ذلك مشيئة ولا خلق، بل ولا علم قبل وقوعه عند غلاتهم.

---

[1] مجموع الفتاوى (٨/ ٤٥٢)

وهاتان الطائفتان -الجبرية والقدرية- ضالتان عن طريق الحق؛ لأنهما بين مفرط غالٍ، ومفرط مقصرٍ؛ فالجبرية غلوا في إثبات القدر وقصروا في إرادة العبد وقدرته، والقدرية غلوا في إثبات إرادة العبد وقدرته وقصروا في القدر. ولهذا كان الأسعد بالدليل والأوفق للحكمة والتعليل هم: **الطائفة الثالثة**: أهل السنة والجماعة، الطائفة الوسط، الذين جمعوا بين الأدلة وسلكوا في طريقهم خير ملة؛ فآمنوا بقضاء الله وقدره، وبأن للعبد اختيارا وقدرة؛ فكل ما كان في الكون من حركة أو سكون أو وجود أو عدم؛ فإنه كائن بعلم الله تعالى ومشيئته، وكل ما كان في الكون فمخلوق لله تعالى، لا خالق إلا الله، ولا مدبر للخلق إلا الله عز وجل، وآمنوا بأن للعبد مشيئة وقدرة، لكن مشيئته مربوطة بمشيئة الله تعالى؛ كما قال تعالى: **{لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}** ، فإذا شاء العبد شيئا وفعله؛ علمنا أن مشيئة الله تعالى قد سبقت تلك المشيئة.[1]

خامسًا: منشأ الكلام في القدر.

بيّن اللهُ في كتابه ورسولُهُ في سنته مفهومَ القدر، وبين الرسول ﷺ أن العمل والأخذ بالأسباب من الإيمان بالقدر وحذر من الذين يكذبون بالقدر أو يعارضون به الشرع، ولقد غضب رسول الله ﷺ غضبا شديداً عندما خرج على الصحابة وهم يتنازعون في القدر حتى احمر وجهه حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي القَدَرِ فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ، حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ، فَقَالَ: **"أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الأَمْرِ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَتَنَازَعُوا فِيهِ"**[2].

قال السيوطي: وإنما غضب ﷺ؛ لأنَّ القدر سرّ من أسرار الله، وطلب سر الله تعالى منهيٌّ عنه، ولأنَّ من يبحثُ في القدر لم يأمن أن يصير قدريًّا أو جبريًّا، بل العباد مأْمُورون بقبول ما أمرهم الشرع من غير أن يطلبوا سِر ما لا يجوز طلب سرِّه"[3].

---

[1] القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٣٩٧)

٢ سنن الترمذي (٢١٣٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي.

٣ قوت المغتذي على جامع الترمذي (١/ ٤٩٦).

واستجاب الصحابة رضوان الله عليهم لعزيمة نبيهم وقَسَمِهِ ولم يُعْرَفْ عن أحد منهم أنه نازع في القدر في حياة رسول الله ﷺ ولا بعد وفاته، ولم يرد إلينا أن واحداً من المسلمين نازع في القدر في عهد الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان، حتى كان أول من تكلم بالقدر رجل من أهل البصرة كان يعمل بقالاً، يقال له سوسن، قال الأوزاعي " **أَوَّلُ مَنْ نَطَقَ بِالْقَدَرِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ يُقَالُ لَهُ: سَوْسَنُ، وَكَانَ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ، ثُمَّ تَنَصَّرَ، فَأَخَذَ عَنْهُ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، وَأَخَذَ غَيْلاَنُ عَنْ مَعْبَدٍ**"[1].

وعَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ فَقُلْنَا : لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلاَءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلاً الْمَسْجِدَ ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ ، وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلاَمَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ : أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لاَ قَدَرَ، وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ، قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، **وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ...الحديث.**

قال النووي: هذا الذى قاله ابن عمر رضي الله عنهما ظاهر في تكفيره القدرية **قال القاضي عياض** رحمه الله هذا في القدرية الأول الذين نفوا تقدم علم الله تعالى بالكائنات [2].

وقد أثار الصحابةُ الأحياءُ رضي الله عنهم في ذلك الوقت كعبد الله بن عمر وابن عباس وواثلة بن الأصقع، وجابر بن عبد الله، وأبي هريرة، وأنس بن مالك حرباً على أصحاب هذه المقالة، ثم

---

١ الشريعة للآجري (٢/ ٩٥٩).

٢ أخرجه مسلم (١). يَتَقَفَّرُونَ يطلبونه ويتتبعونه، أنف: أي مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى وإنما يعلمه بعد وقوعه "شرح النووي على مسلم (١/ ١٥٥)".

أخذ هذا المذهبَ عن معبد رؤوسُ الاعتزال وأئمتُه كواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وغيلان الدمشقي[1].

سادسًا: مراتب القدر

ويجمع الإيمان بالقضاء والقدر أربع مراتب إذا آمن بها العبد فقد استكمل الإيمان بهذا الأصل العظيم.

أولاً- مرتبة العلم:

ومراده الإيمان بأن الله سبحانه، علم الأشياء كلها قبل وجودها ، وعلم مقاديرها وأزمانها، وآجال العباد وأرزاقهم وغير ذلك، فإن الله علم ما كان وما سيكون وما لو كان كيف يكون، **قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢)} [العنكبوت: ٦٢]، وقال تعالى: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)} [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)} [الأنعام: ٥٩].**

يقول أهل العلم بالتفسير: "هذه الآية العظيمة، من أعظم الآيات تفصيلا لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه، وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلا عن غيرهم من العالمين، فهذه الآية دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابِهِ المحيط بجميع الحوادث"[2].

ثانياً-مرتبة الكتابة:

والكتابة هي التقدير، ولها خمسة أحوال:

١- الكتابة الأولى: وهي أوَّلُها وأقدمها وأعظمها كِتَابَةُ الله - عز وجل - مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة في اللوح المحفوظ، وهذه هي الكتابة التي كانت

---

١ القضاء والقدر للأشقر (ص: ١٧).

٢ انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٢٦٥)، تفسير السعدي (ص: ٢٥٩)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ٢٧٢)، تفسير البغوي (٢/ ١٣٠).

قبل الخلق، وهذه الكتابة لا تتبدل ولا تتغير، رُفعت الأقلام وجفَّتْ الصحف، **قال تعالى {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠)}** [الحج: ٧٠].

وقال تعالى {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥)} [النمل: ٧٥].

قال السعدي: أي: خفية وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي، إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فما من حادث جلي أو خفي إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ[1].

٢- الكتابة الثانية: كِتَابَةٌ لمقادير الخلق – المكلفين- من حيث الشّقاوة والسعادة.

وهي أنَّ الله – عز وجل – لمَّا خلق الله – عز وجل – آدم استخرج ذرية آدم من صلبه فنثرهم أمامه كهيئة الذَّر وأخذ عليهم أن لا يشركوا به شيئاً سبحانه وتعالى، وقَبَضَ قبضة إلى الجنة وقبضة إلى النار وكتب أهل الجنة وكتب أهل النار.

فعن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ قَتَادَةَ السُّلَمِيُّ – وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ – قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

"خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ فقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي" قَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ؟ قَالَ: "عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ"[2]

٣- الكتابة الثالثة: وهي التقدير العمري الذي يكون والإنسان في بطن أمه، فإنَّ النطفة إذا صارت في الرحم وبلغت ثنتين وأربعين ليلة أتاها ملك، فأمره الله – عز وجل – بكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد.

وهو ما رواه عبدالله بن مسعود قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، قَالَ: " إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ،

---

١ تفسير السعدي (ص: ٦٠٩).

٢ أخرجه ابن حبان (٣٣٨)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٣٣٩).

ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ "[1].

وهذه الكتابة العُمرية هي تفصيلٌ لما في اللوح المحفوظ، لأنَّ الذي في اللوح المحفوظ شامل لكل المخلوقات، وهذا مُتعلِقٌ بهذا المخلوق المعين وحده.

٤- الكتابة الرابعة: الكتابة السنوية، وهي التي تكون في ليلة القدر، **قال تعالى: {حم (١) وَالكِتَابِ المُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}** [الدخان: ١- ٤].

وهذه تُكْتَبْ فيها المقادير في تلك السَّنَةْ، من السَّنَةْ إلى السَّنَةْ.

ومعنى ذلك: أنَّ الله - عز وجل - يوحي إلى ملائكته بأن يكتبوا أشياء مما في اللوح المحفوظ فتكون بأيديهم مما سيحصل للناس.

٥- الكتابة الخامسة: هي التقدير الأخير وهي التقدير اليومي.

واستدل له أهل العلم **بقوله سبحانه {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}** [الرحمن: ٢٩] [2].

سأل الصحابة النبي ﷺ عن هذه الآية فقال ﷺ: **"مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا وَيُفَرِّجَ كَرْبًا ويرفع قوماً ويضع آخرين "**[3]

ثالثاً- مرتبة المشيئة أو الإرادة:

وتعني أنه سبحانه وتعالى لا يقع في ملكه إلا ما يريد، فلا يقع شيء في السماء والأرض إلا بمشيئته،

قال تعالى: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [الأنعام: ١٢٥].

---

١ صحيح البخاري (٤/ ١١١).

٢ إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل (ص: ٢٥٣).

٣ أخرجه ابن حبان (٦٨٨)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٦٨٩).

والإرادة في هذه الآية إرادة كونية قدرية، بخلاف الإرادة في **قوله تعالى{يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ}** **[النساء: ٢٦- ٢٨].**

فهي إرادة شرعية أو دينية بمعنى المحبة، **والفرق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية من وجهين:**

١ - الإرادة الشرعية تختص فيما يحبه الله، والكونية عامة فيما يحبه وما لا يحبه، فالإرادة الكونية أعم من الإرادة الشرعية.

٢ - الإرادة الكونية يلزم فيها وقوع المراد، والشرعية لا يلزم.

رابعاً- مرتبة الخلق:

والمراد أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق الموجد لجميع الأشياء؛ من ذوات وصفات وأفعال، فالجميع خَلْقُ اللهِ سبحانه، وكل ذلك واقع بمشيئته وقدرته، فالعباد وأرزاقهم وطاعاتهم ومعاصيهم كلها خَلْقُ الله، وأفعالهم تنسب إليهم، فيستحقون الثواب على طيبها، والعقاب على خبيثها، والعبد فاعل حقيقة، وله مشيئة، وله قدرة قد أعطاه الله إياها، والله سبحانه هو خالقه، وخالق أفعاله وقدرته ومشيئته[1].

قال تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢)} [الزمر: ٦٢]، وقال تعالى: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢)} [الفرقان: ٢].

وعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"إِنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ"** وَتَلاَ بَعْضُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ: **{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}** [الصافات: ٩٦]، فَأَخْبَرَ أَنَّ الصِّنَاعَاتِ وَأَهْلَهَا مَخْلُوقَةٌ[2].

سابعًا: شبهات حول الإيمان بالقدر والرد عليها.

قبل ذكر الشبهات والرد عليها نذكر مقدمات مهمة حول مسألة الاحتجاج بالقدر:

---

١ موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية (١٠/ ٣٦٥).

٢ خلق أفعال العباد للبخاري (ص: ٤٦).

أولًا: إن القضية قضية إيمانية بين العبد وربه، وهذه تتطلب:

١- التسليم والاستسلام لله تعالى في كل ما يقضيه ويقدره، وفي كل ما يشرعه ويأمر به وينهى عنه.

٢- الطمأنينة القلبية المملوءة بالإيمان التي تَرُدُّ مثل هذه الوساوس فيما لو عرضت على القلب.

٣- العقيدة الصحيحة المتكاملة على منهج السلف، التي تؤدي إلى الفهم السليم، والموقف الصحيح من مسألة القدر، والسلف الصالح لما كان اعتقادهم سليمًا وقويًا، كانت تقل عندهم مثل هذه المشكلات في باب القدر، لأن قضايا العقيدة واحدة مترابطة، يؤثر بعضها في بعض سلباً وإيجاباً.

ثانياً: إن أساس المشكلة في الاحتجاج بالقدر وإيراد الشبهات على القلب هو توَهُّم التعارض بين الشرع- المقتضي للتكليف ثم الحساب والجزاء- والقدر المقتضي لكمال ربوبية الله تعالى ونفوذ مشيئته وكمال قدرته في خلقه.

والقول الحق أنه لا تعارض بين الأمرين: الشرع والقدر، فكلاهما من الله تعالى، والله مقدر الأقدار هو الذي شرع الشرائع وكلف العباد، فكيف يكون بينهما تعارض؟

ثالثاً: الشبهات التي تدار حول الإيمان بالقدر يبنى الجواب عنها على أربع قواعد:

(القاعدة الأولى): أن علم الله الأزليَّ محيطٌ بكل شيء مما كان ومما سيكون ومما يكن لو كان كيف يكون، فالعباد مهما أعطوا من إرادة وقدرة بها يفعلون، إلا أنهم لا يستطيعون الخروج عن علم الله تعالى الذي لا بد أن يقع كل أمر على وفقه.

(القاعدة الثانية): غنى الله الكامل عن العباد، حيث لا تنفعه طاعة المطيع كما لا تضره معصية العاصي، وهذا يفيد في طمأنينة القلب عند المؤمن في هذا الباب، وأن الله تعالى ليس بحاجة إلى العباد حتى يجبرهم أو يعذبهم بغير ذنب يستحقون العقاب عليه.

(القاعدة الثالثة): وهي أن الله تعالى لا يَظْلِمُ، وقد حرم على نفسه الظلم، ونفاه في كتابه **قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا}** [يونس: ٤٤].

(القاعدة الرابعة): قيام الحجة على العباد، وحجة الله على عباده قامت بأمور:

١- أن لا يكلف إلا البالغ العاقل، فالصغير والمجنون قد رفع عنه القلم.

٢- وجود الإرادة للعبد، ففاقد الإرادة الذي بلغ مرحلة التكليف لا يكلف وحصول هذه الإرادة للعبد مما لا ينكره أي عاقل، وبهذه الإرادة يختار بين الطاعة والمعصية.

٣- القدرة، فالعاجز عن الشيء المطلوبِ لا يكلَّف، ولا يكلِّف الله نفساً إلا وسعها.

٤- قيام الحجة الرِّسالية بإرسال الرسل وإنزال الكتب[١].

ثامنًا: أسئلة حول القضاء والقدر والرد عليها.

أ- السؤال الأول: ما ذنب الإنسان وما حيلته إذا كان الله قد قدر عليه أن يضل ولا يهتدي، وأن كل من ارتكب ذنباً أو سقط في معصية احتج بأن الله قدَّره عليه؟!

الجواب: ثبت بالأدلة النقلية والعقلية أن الله تبارك وتعالى يهدي من كان أهلا للهداية ويضل من كان أهلا للضلالة، ولا يظلم ربك أحداً.

* **فمن أدلة الكتاب:** قوله تعالى: **{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}** [الصف: ٥]، وقال تعالى **{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً}** [المائدة: ١٣].

ولقد ذكر الله احتجاج المشركين من العرب بالقدر على شركهم وتحريمهم ما أحل الله، وبَيَّنَ فسادَه، **قال تعالى: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)}** [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩].

قال السعدي: أخبر الله أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ما أحل الله، بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء من الخير والشر حجة لهم في دفع اللوم عنهم. فلو كانت حجة صحيحة، لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم العذاب، لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه، فعلم أنها حجة فاسدة، وشبهة كاسدة، **من عدة أوجه:**

منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة، لم تحل بهم العقوبة.

---

١ القضاء والقدر للدكتور عبد الرحمن الصالح المحمود ص (٤١٢).

ومنها: أن الحجة، لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان، فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن، الذي لا يغني من الحق شيئا، فإنها باطلة، ولهذا قال: **{قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا}**، ومَنْ بنى حُجَجَه على الظن، فهو مبطل خاسر، فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟.

ومنها: أن الحجة لله البالغة، التي لم تبق لأحد عذرا، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية، والآثار النبوية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمة، فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الأدلة القاطعة باطل، لأن نقيض الحق، لا يكون إلا باطلا.

ومنها: أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعا لاختيارهم، فإن شاءوا فعلوا، وإن شاءوا كَفُّوا، وهذا أمر مُشَاهَدٌ لا ينكره إلا من كابر، وأنكر المحسوسات، فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلا في مشيئة الله، ومندرجا تحت إرادته.

ومنها: أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك، فلو أساء إليهم مسيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر لما قبلوا منه هذا الاحتجاج، ولغضبوا من ذلك أشد الغضب، فيا عجبا كيف يحتجون بالقدر على معاصي الله ومساخطه، ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم؟[1].

* **ومن أدلة السنة:** ما ورد عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَنَازَةٍ، فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ، فَقَالَ: **"مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ"** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ قَالَ: **"اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ"، ثُمَّ قَرَأَ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى}** [الليل: ٦] **الآيَةَ"**[2].

---

١ تفسير السعدي (ص: ٢٧٨).

٢ أخرجه البخاري (٤٩٤٩).

قال ابن حجر: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنَا بِالْعَمَلِ فَوَجَبَ عَلَيْنَا الِامْتِثَال وَغَيَّبَ عَنَّا الْمَقَادِيرَ لِقِيَامِ الْحُجَّةِ وَنَصَبَ الْأَعْمَالَ عَلَامَةً عَلَى مَا سَبَقَ فِي مَشِيئَتِهِ فَمَنْ عَدَلَ عَن الْعَمَلِ ضَلَّ وَتَاهَ[1].

* **ومن الأدلة العقلية:** أن العبد لا يدري ما قدر الله له؛ لأنه لا يعلم بالقدر إلا بعد وقوع المقدور فهو لا يدري هل قدر الله له أن يكون ضالاً، أم أن يكون مهتدياً، **فما باله يسلك طريق الضلال**، ثم يحتج بأن الله قدر له ذلك، أفلا يجدر به أن يسلك طريق الهداية ثم يقول: إن الله تعالى قد هداني للصراط المستقيم[2].

ب- ما الفائدة من الدعوة إلى الله ما دام أن كل البشر قد كتب عملهم؟! فهل سيتغير المكتوب بعد الدعوة إلى الله؟!

إن الله سبحانه قدر المسببات بأسبابها فهو خالق السبب وما ينتج عنه وذلك كله من قدره سبحانه، فهو سبحانه الذي قدر أن يكون الشفاء من الأمراض بأدويتها، وحصول الرزق بطلبه، ودخول الجنة بالإيمان والعمل الصالح، وطول العمر بصلة الرحم والدعاء والمحافظة على الصحة وفعل البر ونحو ذلك، فكل سبب علمنا أن الله سبحانه جعله سببا لشيء من خلال شرعه في الأمور الشرعية ومن خلال التجربة والحس في الأمور المادية الدنيوية فإنما يكون نفعه وتحقق نتيجته بإذن الله سبحانه وقدره فالأخذ بالأسباب المباحة لا ينافي التوكل على الله ولا ينافي الإيمان بقضائه وقدره بل مَنْ تَرَكَ الأَخْذَ بالأسباب هو الذي يُخْدَشُ إيمانُه بقدر الله لأن الأسباب مما قدره الله وقضاه.

جـ- قد يقول قائل ما ذنب الطفل الصغير وما حيلته إذا كان الله قد قدر عليه أن يولد مصابا بالأمراض كالسرطان والفشل الكلوي وغيرها؟.

- الجواب ينبغي أن يعلم كل واحد منا أن الله أوجدنا في هذه الحياة للاختبار والابتلاء لا ليتنعم ويتلذذ الإنسان بها، **قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}** [الملك: ٢]، **وقال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤)}** [البلد: ٤].

---

١ فتح الباري لابن حجر (١١/ ٤٩٨).

٢ رسالة في القضاء والقدر للشيخ ابن عثيمين (ص: ١٥).

أي: في نصب وتعب لا يفارقانه منذ تخلقه في بطن أمه إلى وفاته بانقضاء عمره ثم يكابد شدائد الآخرة ثم إما إلى نعيم لا نصب معه ولا تعب، وإما إلى جحيم لا يفارقه ما هو أشد من النصب والتعب عذاب الجحيم[1].

فإذا علم الإنسان أنه في اختبار، وأن اختبار الله له إما في مادة الصبر وإما في مادة الشكر سكن واطمأن ورضي بقاء الله وقدره سواء كان الابتلاء في نفسه أم في نفس قريب له، وسواء كان المُبْتَلى صغيراً أو كبيراً.

- ومن حكمته وعدله سبحانه أن يضع كل إنسان في الاختبار الذي يليق به ويناسبه، والله لا يكلف أحداً فوق طاقته، فقد يختبر إنساناً بسلب نعمة ليختبر صبره وآخر بزيادة نعمة ليختبر شكره.

قال عبد الملك بن اسحاق: ما من الناس إلا مبتلى بعافية لينظر كيف شكره أو بلية لينظر كيف صبره[2].

والمؤمن يعلم أن الله لا يسلبه شيئاً إلا عوضه خيراً منه إذا صبر واحتسب، **فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ اللَّهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ "يُرِيدُ: عَيْنَيْهِ[3]، وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلاَئِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ[4]**، وقس على هذا المنوال.

د- فإذا قال قائل: كيف يريد الله تعالى كوناً ما لا يحبه، بمعنى: كيف يريد الكفر أو الفسق أو العصيان وهو لا يحبه، وكيف يخلق الله ويقع في ملكه ما لا يحبه من الفسق أو العصيان؟!

---

١ أيسر التفاسير للجزائري (٥/ ٥٧٢).

٢ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ١٣٥).

٣ أخرجه البخاري (٥٦٥٣).

٤ أخرجه الترمذي (١٠٢١)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٤٠٨).

قال ابن القيم: الله سبحانه له الخلق والأمر وأمره سبحانه نوعان: أمر كوني قدري، وأمر ديني شرعي فمشيئته سبحانه متعلقة بخلقه وأمره الكوني وكذلك تتعلق بما يحبه وبما يكرهه، كله داخل تحت مشيئته كما خلق إبليس وهو يبغضه وخلق الشياطين والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها فمشيئته سبحانه شاملة لذلك كله، وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الديني وشرعُهُ الذي شَرَعَه على ألسنة رسله.

فالأفعال الموجودة في هذا الكون بالنسبة لمحبة الله ومشيئته أربعة أنواع:

١- ما وجد من طاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين تعلقت به المحبة والمشيئة جميعا فهو محبوب للرب واقع بمشيئته.

٢- وما وجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقت به مشيئته ولم تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني.

٣- وما لم يوجد منها كإسلام الكافر وطاعة العاصي وهداية الفاسق، تعلقت به محبته وأمره الديني ولم تتعلق به مشيئته.

٤- وما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن قوله تعالى: **{وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}** وقوله: **{لا يُحِبُّ الْفَسَادَ}** وقوله: **{وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}** لا يناقض قوله تعالى: **{فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}** [الأنعام: **١٢٥**]، الدال على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره فإن المحبة غير المشيئة[١].

والدليل على ذلك من جهة العقل: فلا مانع من أن يكون الشيء محبوباً مكروهاً باعتبارين، فها هو الرجل يقدم طفله الذي هو فلذة كبده وثمرة فؤاده، يقدمه إلى الطبيب ليشق جلده ويخرج المادة المؤذية فيه ولو أتى أحد من الناس يريد أن يشقه بظفره وليس بالمشرط لقاتله، لكن هو يذهب إلى الطبيب ليشقه، وهو ينظر إليه، وهو فرح مسرور[٢].

---

١ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل بتصرف(ص: ٤٨).

٢ شرح العقيدة الواسطية للعثيمين (١/ ٢٢٣).

تاسعًا: ثمار الإيمان بالقضاء والقدر.

إذا امتلأ قلب العبد من اليقين بقضاء الله وقدره، وأن كل ما يصيبه مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، ساعده ذلك على عدة أشياء منها:

أ- الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك:

لقد زعم كثير من الفلاسفة أن الخير من الله، والشر من صنع آلهة من دونه، وإنما قالوا هذا القول فراراً من نسبة الشر إلى الله تعالى، والمجوس زعموا أن النور خالق الخير، والظلمة خالقة الشر، والذين زعموا من هذه الأمة أن الله لم يخلق أفعال العباد، أو لم يخلق الضال منها أثبتوا خالِقَيْنِ من دون الله.

ولا يتم توحيد الله إلا لمن أقرَّ أن الله وحده الخالق لكل شيء في الكون، وأن إرادته ماضية في خلقه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، **فكل المكذبين بالقدر لم يوحدوا ربهم، ولم يعرفوه حق معرفته،** والإيمان بالقدر مفرق طريق بين التوحيد والشرك، فالمؤمن بالقدر يُقرُّ بأن هذا الكون وما فيه صادر عن إله واحد ومعبود واحد، ومن لم يؤمن هذا الإيمان فإنه يجعل مع الله آلهة وأرباباً.

ب- صدق الاعتماد على الله واللجوء إليه والاستعانة به والافتقار إليه:

لكون المؤمن به يعلم أن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، والمؤمنون بالقدر دائماً على حذر **{فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}** [الأعراف: ٩٩]، فقلوب العباد دائمة التقلب والتغير، والفتن التي تُوَجَّهُ سِهَامُهَا إلى القلوب كثيرةٌ، والمؤمن يحذر دائماً أن يأتيه ما يضله كما يخشى أن يختم له بخاتمة سيئة، وهذا لا يدفعه إلى التكاسل والخمول، بل يدفعه إلى المجاهدة الدائبة للاستقامة، والإكثار من الصالحات، ومجانبة المعاصي والموبقات، كما يبقى قلب العبد معلقاً بخالقه، يدعوه ويرجوه ويستعينه، ويسأله الثبات على الحق، كما يسأله الرشد والسداد، فعندها يعرف العبد قدر نفسه فلا يتعالى لأنه عاجز عن

معرفة المقدور ومستقبل ما هو حادث، ومن ثم يقر الإنسان بعجزه وحاجته إلى ربه سبحانه وتعالى[1].

جـ مواجهة الصعاب والأخطار بقلب ثابت.

الإنسان حريص على حياته شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجِبِلَّة ، فما الذي يهوّن عليه اقتحام المخاطر وخوض المهالك ومصارعة المنايا، إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر، وركون قلبه إلى أن القدر كائن، فإذا آمن العبد بأنَّ كل ما يصيبه مكتوب، وآمن أن الأرزاق والآجال بيد الله، فإنه يقتحم الصعاب والأهوال بقلب ثابت وهامة مرفوعة، ولذا كان رسول الله ﷺ يربي أصحابه رضي الله عنهم على عقيدة القدر فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، **فَقَالَ: " يَا غُلامُ، أَوْ يَا غُلَيِّمُ، أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ؟ " فَقُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ: " احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا "**[2].

وقد كان هذا الإيمان من أعظم ما دفع المجاهدين إلى الإقدام في ميدان النزال غير هيابين ولا وجلين، وكان الواحد منهم يطلب الموت في مظانه، ويرمى بنفسه في مضائق يظن فيها هلكته، ثم تراه يموت على فراشه، فيبكي أن لم يسقط في ميدان النزال شهيداً، وهو الذي كان يقتحم الأخطار والأهوال[3].

دـ الاستقامة على منهج سواء في السراء والضراء.

العباد بما فيهم من قصور وضعف لا يستقيمون على منهج سواء، قال تعالى: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)} [المعارج: ١٩ - ٢١].**

---

١ مجلة البحوث الإسلامية (٣٤/ ٢٤٩).

٢ أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٣٠٢).

٣ مجلة المنار (٣/ ٢٦٥).

والإيمان بالقدر يجعل الإنسان يمضي في حياته على منهج سواء، لا تبطره النعمة، ولا تيئسه المصيبة، فهو يعلم أن كل ما أصابه من نعم وحسنات من الله، لا بذكائه وحسن تدبيره، **قال تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ}** [النحل: **٥٣**]، ولا يكون حالُهُ حالَ قارون الذي بغى على قومه، واستطال عليهم بما أعطاه الله من كنوز وأموال، **قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي}** [القصص: ٧٦-٧٨].

فإذا أصاب العبد الضراء والبلاء علم أن هذا بتقدير الله ابتلاء منه، فلا يجزع ولا ييأس، بل يحتسب ويصبر، فيكسب هذا الإيمان في قلب العبد المؤمن الرضا والطمأنينة، **قال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}** [الحديد: ٢٢، ٢٣] .

وقد امتدح الله عباده، قال تعالى: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ } [البقرة: ١٥٦، ١٥٧][1].

---

١ القضاء والقدر للأشقر (ص: ١١٠).

ثالثا: الفقه

السلام أحكام وآداب

إن الله تعالى بعث نبينًا محمدًا ﷺ، وجعله آخر الأنبياء والمرسلين، فارتضى له الإسلام دينًا، وجعل القرآن له خلقًا، وامتن عليه بالصفات الفاضلة والآداب السامية، ثم أثنى عليه قائلاً {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم: ٤] ، ونبينا محمد ﷺ بلغ الرسالة وأدّى الأمانة، وعلم أمته مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، ومن الآداب التي اعتنى بها ديننا الإسلام : آداب السلام، شرعه ربنا العلام، لمصلحة الأنام، يثبت المتحابين، ويقرب المتخاصمين، سبب للمحبة، والسلامة، والدخول إلى دار الكرامة.

لذلك ينبغي لذي العقل السليم المحافظة على سنة الكريم، و يكون بنبيه متأسيًا، و لثواب ربه راجيًا، سائلاً ربه أن يكون في الآخرة ناجيًا.

لذا أردنا أن تكون هذه الكلمات حول هذا الأدب الرفيع .

أولًا: تعريف السلام

معنى السلام قيل هو اسم الله تعالى، فقوله "السلام عليك" أي: اسم السلام عليك، ومعناه اسم الله عليك، أي أنت في حفظه، كما يقال الله معك، والله يصحبك.[1]

والسلام بمعنى الدعاء بالسلامة من كل آفة، فإذا قلت لشخص: السلام عليك فهذا يعني أنك تدعو له بأن الله يسلمه من كل آفة: يسلمه من المرض من الجنون، يسلمه من شر الناس، يسلمه من المعاصي

وأمراض القلوب، يسلمه من النار فهو لفظ عام معناه الدعاء للمسلم عليه بالسلامة من كل آفة.[2]

ثانيًا: مشروعية السلام.

السلام مشروع بالكتاب والسنة وإجماع الأمة

---

[1] شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٤١)، فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٣)

[2] شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٨٠)

قال الله تعالى {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ حَسِيبًا} [النساء ٨٦].

قال القرطبي: الصحيح أن التحية ههنا : السلام؛ لقوله تعالى {وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله} [المجادلة ٨].[١]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ مِنَ المَلاَئِكَةِ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ، تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ[٢]، فَقَالُوا: السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ"[٣]

فهذا أول مشروعية السلام، وتخصيصه؛ لأنه فتح باب المودة، وتأليف لقلوب الإخوان المؤدي إلى استكمال الإيمان.

قال القرطبي: هذا الكلام دليل على تأكد حكم السلام، فإنه مما شرع وكلف به آدم، ثم لم ينسخ في شريعة من الشرائع.[٤]

ثالثا: فضائل السلام

إفشاء السلام من الأعمال التي تقرب العبد من الله تعالى، وتزيد المحبة والمودة بين العباد، وتذهب البغضاء والشحناء من قلوبهم، وله فضائل عظيمة منها:-

الأول: السلام اسم من أسماء الله تعالى

قال الله تعالى {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [الحشر: ٢٣]

---

[١] الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٤٩٠).

[٢] قوله " فقال: السلام عليكم " قال ابن بطال: يحتمل أن يكون الله علمه كيفية ذلك تنصيصًا، ويحتمل أن يكون فهم ذلك من قوله له: " فسلم " قال ابن حجر: ويحتمل أن يكون ألهمه ذلك، ويؤيده ما تقدم في باب حمد العاطس في الحديث الذي أخرجه ابن حبان من وجه آخر عن أبي هريرة رفعه: "إن آدم لما خلقه الله عطس فألهمه الله أن قال الحمد لله.. الحديث" فلعله ألهمه أيضًا صفة السلام. فتح الباري لابن حجر (١١/ ٤).

[٣] البخاري(٣٣٢٦)، مسلم (٢٨٤١)

[٤] المفهم (٧/ ١٨٤)

{السلام} أي: من جميع العيوب والنقائص؛ بكماله في ذاته وصفاته وأفعاله.[1]

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِنَّ السَّلامَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى، وَضَعَهُ اللهُ فِي الأَرْضِ، فَأَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ "[2]

الثاني: السلام عمل رئيس وسبب أصيل في الفوز بالجنة ،وهي أغلى أمنية يتمناها العبد ويعيش لأجل تحصيلها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ"[3]

فيه الحث العظيم على إفشاء السلام وبذله للمسلمين كلهم من عرفت ومن لم تعرف والسلام أول أسباب التألف ومفتاح استجلاب المودة وفي إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض وإظهار شعارهم المميز لهم من غيرهم من أهل الملل مع ما فيه من رياضة النفس ولزوم التواضع وإعظام حرمات المسلمين ، وفيها لطيفة أخرى وهي أنها تتضمن رفع التقاطع والتهاجر والشحناء وفساد ذات البين التي هي الحالقة وأن سلامه لله لا يتبع فيه هواه ولا يخص أصحابه وأحبابه به.[4]

الثالث: السلام سبب المحبة التي تفضي إلى الإيمان الموصل إلى الجنة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلاَمٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبَنْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلاَمَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ"[5]

الرابع: السلام من حق المسلم على أخيه المسلم.

---

[1] تفسير ابن كثير (٨/ ٨٠)

[2] البخاري في الأدب المفرد (٩٨٩)،وحسن إسناده الحافظ في الفتح (١١/ ١٣)، وصحح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة(١٨٤)

[3] مسلم (٥٤)

[4] شرح النووي على مسلم (٢/ ٣٦) باختصار

[5] أحمد(٢٣٧٨٤)، الترمذي(١٣٣٤)، ابن ماجه(٢٤٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(٥٦٩)

من حق المسلم على أخيه أن يسلم عليه إذا لقيه. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ" قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: "إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَسَمِّتْهُ[1]، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ"[2]

وفي رواية " حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلاَمِ، وَعِيَادَةُ المَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ العَاطِسِ"[3]

هذه كلها من حق الإسلام يستوي فيها جميع المسلمين برهم وفاجرهم، غير أنه يخص البر بالبشاشة والمساءلة والمصافحة، دون الفاجر المظهر للفجور، ولو ترك الإجابة إذا دعي لحق الدين كان أولى.[4]

الخامس: إفشاء السلام إحدى الوصايا السبع التي أمر رسول الله ﷺ بها أصحابه، ليلتزموها في حياتهم، لما فيها من الأمن والأمان، والتواصل بين الإخوان.

فعَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه، قَالَ: " أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وذكر منها "...وَإِفْشَاءِ السَّلاَمِ...."[5]

السادس: حسد اليهود لهذه الأمة لأجل السلام.

عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلاَمِ وَالتَّأْمِينِ"[6]

قوله " مَا حَسَدَتْكُمُ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ "مما أعطيتم من الآداب "ما حسدتكم على السلام" في ما بينكم وفيه أن السلام من خصائص هذه الأمة إلا أنه جاء في حديث: "خلق آدم أن الله جعل

---

[1] معناه: هداك الله إلى السمت المستقيم. منة المنعم في شرح صحيح مسلم (٣/ ٤٣٦)

[2] مسلم (٢١٦٢)

[3] البخاري(١٢٤٠)،مسلم (٢١٦٢)

[4] شرح السنة للبغوي (٥/ ٢١٢)

[5] البخاري(٥٦٣٥)، مسلم (٢٠٦٦) وفي بعض ألفاظ الحديث :" ورد السلام" عند البخاري ومسلم

[6] ابن ماجه(٨٥٦)وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦١٣)

السلام تحية لآدم وذريته"، قلت: يمكن أن يقال قد كان تركه بنو إسرائيل فلما جاء من طريق المسلمين حسدوهم عليه.[1]

السابع: السلام من سنن الأنبياء و عمل الملائكة.

قال الله تعالى{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ(٢٤)إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ} [الذاريات ٢٤ – ٢٥].

وقال تعالى: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل ٣٢].

فتبين من هذا أن السلام من سنن الرسل السابقين، و أنه أيضًا من عمل الملائكة المقربين.[2]

الثامن: السلام من حقوق الطريق

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ"، فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ، إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ: "فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا المَجَالِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا"، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: "غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلاَمِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ"[3]

التاسع: أبخل الناس من بخل بالسلام.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ أَعْجَزَ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ فِي الدُّعَاءِ، وَأَبْخَلَ النَّاسِ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلاَمِ"[4].

قال المناوي: أطلق عليه اسم البخل لكونه منع ما أمر به الشارع من بذل السلام وجعله أبخل لكونه من بخل بالمال معذور في الجملة، لأنه محبوب للنفوس عديل للروح بحسب الطبع

---

[1] التنوير شرح الجامع الصغير (٩/ ٣٨٥).

[2] شرح رياض الصالحين (٣/ ١٢٠).

[3] البخاري(٢٤٦٥)، مسلم (٢١٢١).

[4] الطبراني في الدعاء(٦٠)، الترغيب في فضائل الأعمال لابن شاهين(٤٩٢)، الترغيب في الدعاء لعبد الغني المقدسي(٢٠) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(٦٠١)

والغريزة ففي بذله قهر للنفس وأما السلام فليس فيه بذل مال فمخالف الأمر في بذله لمن لقيه قد بخل بمجرد النطق فهو أبخل من كل بخيل.[1]

رابعًا: أحكام السلام

للسلام أحكام كثيرة نذكر منها ما يلي:

الأول: حكم إلقاء السلام

أولًا: إذا كان المسلِّم فردًا

فقد أجمع العلماء على أن الابتداء بالسلام سنة مرغب فيها.[2]

ثانيًا: إن كان المسلِّم جماعة

إذا كان المسلم جماعة فهو سنة كفاية في حقهم إذا سلم بعضهم حصلت سنة السلام في حق جميعهم.[3]

فعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يُجْزِئُ عَنِ الْجَمَاعَةِ إِذَا مَرَّتْ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدُهُمْ، وَيُجْزِئُ عَنِ الْقُعُودِ أَنْ يَرُدَّ أَحَدُهُمْ"[4]

الثاني: حكم رد السلام

أولًا: إن كان المسلَّم عليه فردًا

إن كان المسلم عليه واحدا تعين عليه الرد. وقد نقل غير واحد الإجماع على ذلك.[5]

وإنما كان الرد واجبًا لأن السلام معناه الأمان فإذا ابتدأ به المسلم أخاه فلم يجبه فإنه يتوهم منه الشر فيجب عليه دفع ذلك التوهم عنه.[6]

ثانيًا: إن كان المسلَّم عليهم جماعة

---

[1] فيض القدير (١/ ٥٥٦)

[2] الاستذكار (٢٧/ ١٣٥)، تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٨) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٤٠)

[3] شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٤٠)

[4] أبو داود(٥٢١٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة(٢٢٤)، والبزار(٥٣٤)، وحسنه الألباني بشواهده كما في الإرواء(٧٧٨)

[5] الاستذكار (٢٧/ ١٣٥)، شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٤٠).

[6] فتح الباري لابن حجر (١١/ ٧).

إن كانوا جماعة كان الرد فرض كفاية في حقهم فإذا رد واحد منهم سقط الحرج عن الباقين، ولو ردوا كلهم كان أفضل كما هو شأن فروض الكفاية كلها.

فعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يُجْزِئُ عَنِ الْجَمَاعَةِ إِذَا مَرَّتْ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدُهُمْ، وَيُجْزِئُ عَنِ الْقُعُودِ أَنْ يَرُدَّ أَحَدُهُمْ"[1]

وقد نقل غير واحد من أهل العلم الإجماع على ذلك.[2]

الثالث: صيغ ابتداء السلام

وردت صيغ كثيرة لابتداء السلام والمشهور منها :

"**السلام عليكم ورحمة الله وبركاته**" وهي أفضلها. "**السلام عليكم ورحمة الله**". "**السلام عليكم**".

فعن عِمرانَ بنِ حُصَين، قال: جاء رجُلٌ إلى النبيَّ ﷺ، فقال: السلامُ عليكُم، فردَّ عليه، ثم جلَسَ، فقال النبي ﷺ: "عشرٌ"، ثُمَّ جاء آخرُ، فقال: السلامُ عليكم ورحمةُ الله، فردَّ عليه، فجلسَ، فقال: "عِشْرونَ"، ثم جاء آخرُ، فقال: السلامُ عليكُم ورحمةُ الله وبركاتُه، فردَّ عليه، فجلسَ، فقال: "ثلاثونَ"[3]

الرابع: صيغ رد السلام

وردت صيغ كثيرة لرد السلام والمشهور منها :

---

[1] سبق تخريجه.

[2] فتح الباري لابن حجر (١١/ ٦)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٩٤٥) وكأنهم لم يعتبروا ما هو مروي عن أبي يوسف بأن الرد فرض عين على كل فرد .واحتج له بحديث رد الملائكة على آدم لأن فيه "فقالوا السلام عليك" وتعقب بجواز أن يكون نسب إليهم والمتكلم به بعضهم.

واحتج له أيضا بالاتفاق على أن من سلم على جماعة فرد عليه واحد من غيرهم لا يجزئ عنهم. وتعقب بظهور الفرق. فتح الباري لابن حجر (١١/ ٦)

[3] الدارمي (٢٦٤٠) ، وأبو داود (٥١٩٥) ، والترمذي (٢٦٨٩) أحمد (١٩٩٤٨)، وحسنه الألباني في المشكاة (٤٦٤٤)

"**وَعَلَيْكُم السَّلاَم وَرَحْمَة الله وَبَرَكَاته" وهي أفضلها** فعَن أنس قَالَ كنت جَالِسًا مَعَ رَسُول الله ﷺ فِي الْحلقَة إِذْ جَاءَ رجل فَسلم على النَّبِي ﷺ وعَلى الْقَوْم فَقَالَ السَّلاَم عَلَيْكُم فَرد عَلَيْهِ النَّبِي ﷺ وَعَلَيْكُم السَّلاَم وَرَحْمَة الله وَبَرَكَاته... "[1]

"وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ"[2] كما في حديث أنس وفيه" فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَانْطَلَقَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَقَالَ: "السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ"، فَقَالَتْ: وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ"[3]

"وعليك السلام ورحمة الله" فعَنْ قَيْلَةَ بِنْتِ مَخْرَمَةَ قَالَتْ: قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَتِ الحَدِيثَ بِطُولِهِ، حَتَّى جَاءَ رَجُلٌ وَقَدْ ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ"[4]

"وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ" فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلاً دَخَلَ المَسْجِدَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي نَاحِيَةِ المَسْجِدِ، فَصَلَّى ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَعَلَيْكَ السَّلاَمُ، ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ "[5]

الخامس: حكم قول "عليك السلام" في ابتداء السلام

عَنْ أَبِي جُرَيٍّ الهُجَيْمِيِّ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: عَلَيْكَ السَّلاَمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "لَا تَقُلْ عَلَيْكَ السَّلاَمُ، فَإِنَّ عَلَيْكَ السَّلاَمُ تَحِيَّةُ المَوْتَى "[6]

في الحديث دلالة صريحة على النهي عن ابتداء السلام بهذه الصيغة، من وجوه :

---

[1] النسائي في عمل اليوم والليلة(٣٤١)، وابن السني في عمل اليوم والليلة(٤٤٤)

[2] وإذا كانت بصيغة الجمع "**وعليكم**" فهي أحسن. يشهد لذلك ما أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٣٧) عن معاوية بن قرة قال: قال لي أبي: يا بني! إذا مر بك الرجل فقل: السلام عليكم؛ فلا تقل: وعليك، كأنك تخصه بذلك وحده؛ فإنه ليس وحده، ولكن قل: السلام عليكم.

ورواه ابن أبي شيبة (٨ / ٦١١ / ٥٧٣٧) . وصحح إسناده الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١٢/ ٥٦٣)

[3] البخاري(٤٧٩٣)

[4] الترمذي(٢٨١٤) وحسنه الألباني

[5] البخاري (٦٢٥١)، مسلم(٢٨٤١)

[6] أحمد (٢٠٦٣٢)، أبو داود (٥٢٠٩)، الترمذي(٢٧٢١)، والنسائي في عمل اليوم(٣١٧)، وصححه الألباني في الصحيحة بالأرقام التالية(٢٨٤٦،١٤٠٣،١١٠٩)

الأول: أن النبي ﷺ لم يردّ عليه السلام فورًا.

الثاني: أنه ﷺ أنكر عليه هذه الصيغة.

الثالث: أنه أرشده إلى الصيغة الشرعية للسلام، فدل أن تلك الصيغة ليست شرعية".

اشكال ورده: هذا يوهم أن السنة في تحية الميت أن يقال له "عليك السلام" كما هو الظاهر من الرواية. لكن قد جاء ما يخالف ذلك كما عند مسلم من حديث عائشة في خروج النبي ﷺ إلى البقيع الحديث وفيه: قلت كيف أقول؟، قال قولي: "السلام على أهل الديار من المؤمنين"[1] وكذا أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: لما أتى البقيع السلام على أهل الديار من المؤمنين"[2] الحديث.

والجواب على ذلك من عدة احتمالات:

الأول: قال ذلك القول منه إشارة إلى ما جرت به العادة منهم في تحية الأموات.

الثاني: يحتمل أن يكون النهي مخصوصًا بمن يرى أنها تحية الموتى وبمن يتطير بها من الأحياء فإنها كانت عادة أهل الجاهلية وجاء الإسلام بخلاف ذلك.

الثالث: يحتمل أن يكون حديث عائشة لمن زار المقبرة فسلم على جميع من بها، وحديث أبي جري إثباتًا ونفيًا في السلام على الشخص الواحد.[3]

السادس: هل قول الرجل "مرحبا" يغني عن رد السلام

في حديث أم هانئ بنت أبي طالب قالت: "ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الفَتْحِ، فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ، قَالَتْ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: "مَنْ هَذِهِ"، فَقُلْتُ: أَنَا أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: "مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئٍ"[4]

---

[1] مسلم (٩٧٤)

[2] مسلم (٩٧٥) من حديث بريدة رضي الله عنه.

[3] معالم السنن (٤/ ١٩٤)، زاد المعاد في هدي خير العباد (٢/ ٣٨٤)، فتح الباري لابن حجر (١١/ ٤)

[4] البخاري(٣٥٧)، مسلم (٣٣٦).

وعَنْ أَبِي جَمْرَةَ، قَالَ: كُنْتُ أُتَرْجِمُ بَيْنَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَقَالَ: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ القَيْسِ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: "مَنِ الوَفْدُ أَوْ مَنِ القَوْمُ" قَالُوا: رَبِيعَةُ فَقَالَ: "مَرْحَبًا بِالقَوْمِ أَوْ بِالوَفْدِ، غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ نَدَامَى"[1]

قال ابن حجر: قوله "مرحبا" هو منصوب بفعل مضمر أي: صادفت رُحبا بضم الراء أي: سعة، والرحب بالفتح الشيء الواسع وقد يزيدون معها "أهلا" أي: وجدت أهلاً فاستأنس، وفيه دليل على استحباب تأنيس القادم، وقد تكرر ذلك من النبي ﷺ ففي حديث أم هانئ "مرحبا بأم هانئ" وفي قصة عكرمة بن أبي جهل "مرحبا بالراكب المهاجر"[2] وفي قصة فاطمة "مرحبا بابنتي"[3] وكلها صحيحة وأخرج النسائي من حديث عاصم بن بشير الحارثي عن أبيه أن النبي ﷺ قال له لما دخل فسلم عليه "مرحبا وعليك السلام"[4]

ومن ذلك نستفيد أن جواب الرجل بقوله مرحبًا هو من باب الاستئناس والترحيب، ولا يغني ذلك عن رد السلام وذلك لأنها ليست بجواب شرعي للسلام ، ولكن لا بأس بقولها لا على أنها رد السلام ، إنما يرد السلام ، ويقولها بعد ذلك.

السابع: السلام على الصبيان

يشرع السلام على الصبيان وذلك لتعويدهم وتدريبهم منذ الصغر على آداب الشريعة، وفاعله متأسيًا بالنبي ﷺ. فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ "مَرَّ عَلَى غِلْمَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ"[5]

وفي رواية عند مسلم. عَنْ سَيَّارٍ، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ، فَمَرَّ بِصِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَحَدَّثَ ثَابِتٌ أَنَّهُ كَانَ يَمْشِي مَعَ أَنَسٍ، فَمَرَّ بِصِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَحَدَّثَ أَنَسٌ أَنَّهُ كَانَ يَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ "فَمَرَّ بِصِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ"

قال النووي: اتفق العلماء على استحباب السلام على الصبيان.[1]

---

[1] البخاري(٨٧)، مسلم (١٧)

[2] الترمذي(٢٧٣٥) وضعف إسناده الألباني في ضعيف سنن الترمذي(٣٤)

[3] البخاري(٣٦٢٣)، مسلم (٢٤٥٠)

[4] أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة(٣١٣). فتح الباري لابن حجر (١/ ١٣١)، وانظر: شرح النووي على مسلم (١/ ١٨٧)

[5] البخاري(٦٢٤٧)، مسلم(٢١٦٨) واللفظ له

قال ابن بطال: سلام النبي ﷺ على الصبيان من خلقه العظيم، وأدبه الشريف وتواضعه عليه السلام.[٢]

وللسلام على الصبيان أكثر من فائدة:

١ – اتباع السنة: سنة النبي ﷺ وقد قال الله تعالى {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: **٢١**]

٢ – التواضع: حتى لا يذم الإنسان بنفسه ويشمخ بأنفه ويعلو برأسه يتواضع ويسلم على الصبيان وقد قال النبي ﷺ ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه.

٣ – تعويد الصبيان لمحاسن الأخلاق لأن الصبيان إذا رأوا الرجل يمر بهم ويسلم عليهم تعودوا ذلك واعتادوا هذه السنة المباركة الطيبة.

٤ – أن هذا يجلب المودة للصبي يعني أن الصبي يحب الذي يسلم عليه ويفرح لذلك وربما لا ينساها أبدًا.[٣]

الثامن: سلام الرجال على النساء، والنساء على الرجال.[٤]

سلام الرجل على المرأة الأجنبية، منعه بعض أهل العلم، وأجازه البعض، وبعضهم فصل فقال: إن كانت شابة جميلة لم يجز، وإن كانت عجوزاً جاز، وبعضهم أطلق فمنعه في الشابة، وأجازه مع الكبيرة.

والأصل الجواز بقيد أمن الفتنة.[٥]

---

[١] شرح النووي على مسلم (**١٤/ ١٤٩**).

[٢] شرح صحيح البخاري (**٩/ ٢٧**).

[٣] شرح رياض الصالحين (**٤/ ٤١٨**)

[٤] المقصود هنا السلام بالكلام فقط دون المصافحة، **لأن مصافحة المرأة الأجنبية حرام** كما في حديث مَعْقِل بْنَ يَسَارٍ رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَأَنْ يُطْعَنَ فِي رَأْسِ أَحَدِكُمْ بِمِخْيَطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ" الطبراني في المعجم(**٤٨٦**)، انظر السلسلة الصحيحة (**٢٢٦**)

[٥] انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (**٩/ ٢٩**)، إكمال المعلم بفوائد مسلم (**٧/ ٥٤**)، فتح الباري لابن حجر (**١١/ ٣٣**).

فعَنْ سَهْلٍ، قَالَ: "كُنَّا نَفْرَحُ يَوْمَ الجُمُعَةِ" قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: " كَانَتْ لَنَا عَجُوزٌ، تُرْسِلُ إِلَى بُضَاعَةَ - قَالَ ابْنُ مَسْلَمَةَ: نَخْلٍ بِالْمَدِينَةِ - فَتَأْخُذُ مِنْ أُصُولِ السِّلْقِ، فَتَطْرَحُهُ فِي قِدْرٍ، وَتُكَرْكِرُ حَبَّاتٍ مِنْ شَعِيرٍ، فَإِذَا صَلَّيْنَا الجُمُعَةَ انْصَرَفْنَا، وَنُسَلِّمُ عَلَيْهَا فَتُقَدِّمُهُ إِلَيْنَا، فَنَفْرَحُ مِنْ أَجْلِهِ، وَمَا كُنَّا نَقِيلُ وَلاَ نَتَغَدَّى إِلَّا بَعْدَ الجُمُعَةِ"[1]

وفي حديث أم هانئ بنت أبي طالب قالت: "ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الفَتْحِ، فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ، قَالَتْ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ.."[2]

وإذا سلم الرجل على المرأة فيجب على المرأة رد سلام الرجل ولا ترفع صوتها.[3]

وأما ما جاء في التفرقة بين تسليم الرجال على النساء والعكس، وما جاء في المنع مطلقًا

فقد قال ابن حجر: أخرج أبو نعيم في عمل يوم وليلة من حديث واثلة مرفوعًا "يسلم الرجال على النساء ولا يسلم النساء على الرجال"[4] وسنده واه.

وقال النووي: قال ربيعة لا يسلم الرجال على النساء ولا النساء على الرجال، وهذا غلط.[5]

التاسع: السلام وصلاة تحية المسجد

الداخل للمسجد يستحب له أن يقدم تحية المسجد قبل تحية أهلها، وفي حديث المسيء في صلاته ما يدل لذلك. فعن أبي هريرة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ المَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرَدَّ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: "ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ"، فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: "ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ" ثَلاَثًا.[6]

والشاهد منه "فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ".

العاشر: السلام على المصلي وكيفية الرد

---

[1] البخاري(٦٢٤٨).

[2] البخاري(٣٥٧)، مسلم (٣٣٦).

[3] عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨/ ١١)

[4] أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة(٢٤٤) وقال الألباني: حديث موضوع. السلسلة الضعيفة(٥٤٣٥)

[5] شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٤٩)

[6] البخاري(٧٩٣)، مسلم (٣٩٧)

وهذا ثابت من إقرار النبي ﷺ لصحابته، حيث كانوا يسلمون عليه وهو في الصلاة ولم ينكر عليهم ذلك.

ومن الأدلة على ذلك :-

عَنْ جَابِرٍ، أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَنِي لِحَاجَةٍ، ثُمَّ أَدْرَكْتُهُ وَهُوَ يَسِيرُ - قَالَ قُتَيْبَةُ: يُصَلِّي - فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَأَشَارَ إِلَيَّ، فَلَمَّا فَرَغَ دَعَانِي فَقَالَ: "إِنَّكَ سَلَّمْتَ آنِفًا وَأَنَا أُصَلِّي" وَهُوَ مُوَجِّهٌ حِينَئِذٍ قِبَلَ الْمَشْرِقِ.[1]

ومنها: **حديث صهيب** أنه قال: مررت برسول الله ﷺ، وهو يصلي، فسلمت عليه، فرد إشارة. قال: ولا أعلمه إلا قال: إشارة بأصبعه.[2]

ففي هذه الأحاديث وغيرها دليل على جواز إلقاء السلام على المصلي، ورده بالإشارة.

وليست هناك صفة محدد لرد السلام بالإشارة في الصلاة، والوارد في ذلك عن النبي ﷺ متنوع، فمرة كانت الإشارة بالأصبع كما في حديث صهيب المتقدم، ومرة كانت الإشارة باليد كما في حديث جابر، ومرة كانت الإشارة بالكف كما في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: "خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى قُبَاءَ يُصَلِّي فِيهِ"، قَالَ: "فَجَاءَتْهُ الْأَنْصَارُ، فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي"، قَالَ: " فَقُلْتُ لِبِلَالٍ: كَيْفَ رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ حِينَ كَانُوا يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي؟"، قَالَ: "يَقُولُ هَكَذَا، وَبَسَطَ كَفَّهُ"، وَبَسَطَ جَعْفَرُ بْنُ عَوْنٍ كَفَّهُ، وَجَعَلَ بَطْنَهُ أَسْفَلَ، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ إِلَى فَوْقٍ.[3]

ويجمع بين هذه الروايات بأنه ﷺ فعل هذا مرة فيكون جميع ذلك جائزًا. والله أعلم.[4]

قال ابن القيم: وأما حديث أبي غطفان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من أشار في صلاته إشارة تفهم عنه فليعد صلاته"[5] فحديث باطل.[1]

---

[1] مسلم (٥٤٠)

[2] أبو داود(٩٢٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود(٨٥٨)

[3] أبو داود(٩٢٧) وجود إسناده الألباني كما في السلسلة الصحيحة (١٨٥).

[4] عون المعبود (٣/ ١٩٦).

[5] أبو داود(٩٤٤)، الدارقطني(١٨٦٧)، وقال أبو داود :هَذَا الْحَدِيثُ وَهْمٌ. وأنكره الألباني كما في الضعيفة(١١٠٤)

الحادي عشر: السلام على تالي القرآن

السلام على المشتغل بتلاوة القرآن منعه بعض العلماء وأجازه بعضهم، والصواب مع من أجازه، فلا دليل على إخراج تالي القرآن من عمومات النصوص التي تحق على إفشاء السلام، وعلى وجوب رده.، وكونه مشتغلاً بأعلى أنواع الذكر وهو قراءة القرآن؛ لا يمنع من إلقاء السلام عليه، ولا يسقط عنه واجب الرد.[٢]

قال النووي: وأما المشتغل بقراءة القرآن، فأنه يشرع السلام عليه ويجب عليه الرد.[٣]

الثاني عشر: السلام على المؤذن

فإنه مشروع، والحجة ما تقدم فإنه إذا ما ثبت استحباب السلام على المصلي، فالسلام على المؤذن أولى وأحرى.[٤]

وهل يرد السلام باللفظ أم بالإشارة؟

الظاهر الأول، قال النووي: وأما المؤذن فلا يكره له رد الجواب بلفظه المعتاد لأن ذلك يسير، لا يبطل الأذان ولا يخل به.[٥]

الثالث عشر: السلام على المتخلي

يكره إلقاء السلام على من كان في قضاء حاجته وإذا ألقي عليه السلام فلا يرد السلام باتفاق أهل العلم،[٦] والأصل في هذا ما جاء عَنِ ابْنِ عُمَرَ: "أَنَّ رَجُلاً مَرَّ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَبُولُ، فَسَلَّمَ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ"[٧]

---

[١] زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٢٥٩)

[٢] سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٣٦١)

[٣] الأذكار للنووي (ص: ٢٥١) باختصار

[٤] سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٣٦١)

[٥] الأذكار للنووي (ص: ٢٥٢)

[٦] شرح النووي على مسلم (٤/ ٦٥) ويفرق بين من يقضي حاجته، وبين المحدث الذي على غير طهارة فإنه يرد السلام حتى ولو كان على غير وضوء.

[٧] مسلم (٣٧٠)

ويستحب لمن أُلقي عليه السلام وهو يقضي حاجته أن يرد السلام بعد الوضوء تأسياً برسول الله ﷺ، فعَنِ الْمُهَاجِرِ بْنِ قُنْفُذٍ، أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَبُولُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ حَتَّى تَوَضَّأَ، ثُمَّ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ " إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَذْكُرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا عَلَى طُهْرٍ أَوْ قَالَ: عَلَى طَهَارَةٍ "[1]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ رَجُلاً مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَبُولُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِذَا رَأَيْتَنِي عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ فَلاَ تُسَلِّمْ عَلَيَّ، فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لَمْ أَرُدَّ عَلَيْكَ"[2]

الرابع عشر: السلام على أهل المعاصي والبدعة

أما أهل المعاصي فهو يسلم عليهم ويرد عليهم سلامهم، قال النووي: اعلم أن الرجل المسلم الذي ليس بمشهور بفسق ولا بدعة يسلِّم ويسلَّم عليه، فيسن له السلام ويجب الرد عليه.[3]

ولكن إن كان العاصي مشهوراً بفسقه ومعصيته، فهل يقال بترك السلام عليه؟ الجواب: إذا كان في ترك السلام عليه مصلحة راجحة، كأن يرتدع العاصي عن معصيته إذا لم يُسلم عليه أو لا يرد عليه سلامه، فإن كان في ذلك مصلحة تُرك السلام عليه لعله ينتهي، اما إن كان العكس وغلب على ظننا أنه معصيته تزيد؛ فإننا نسلم عليه ونرد عليه سلامه تقليلاً للمفسدة لأنه لا مصلحة من ترك السلام عليه.

وأما أهل البدع؛ فإن من البدع ما يكون مكفراً، ومنها دون ذلك. فصاحب البدعة المكفرة لا يسلم عليه بحال، وصاحب البدعة غير المكفرة فإنه يأخذ حكم أهل المعاصي كما سبق بيانه.

والأصل في هذا كله حديث كعب بن مالك الطويل في تخلفه عن الغزو مع رسول الله ﷺ وتوبة الله عليه وفيه قال كعب " وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا، فَكُنْتُ أَشَبَّ القَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاَةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ،

---

[1] أحمد(١٩٠٣٤)،أبو داود (١٧) انظر الصحيحة(٨٣٤)

[2] ابن ماجه(٣٥٢) انظر الصحيحة(١٩٧)

[3] الأذكار (ص: ٢٥٢)

وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ عَلَيَّ أَمْ لاَ؟"[1]

الخامس عشر: السلام حال خطبة الجمعة.

يكره السلام حال خطبة الجمعة لأمر النبي ﷺ المأمومين بالإنصات حال خطبة الإمام. ودليل هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الجُمُعَةِ: أَنْصِتْ، وَالإِمَامُ يَخْطُبُ، فَقَدْ لَغَوْتَ "[2]

قال النووي: وأما السلام حال الخطبة في الجمعة فيكره للأمر بالإنصات.[3]

قال ابن رجب: وقد جعل النبي ﷺ في هذ الحديث الأمر بالإنصات في حال الخطبة لغواً، وإن كان أمر بمعروف ونهيا عن منكرٍ، فدل على أن كل كلام يشغل عن الاستماع والإنصات فهو في حكم اللغو، وإنما يسكت المتكلم بالإشارة.

ولا خلاف في جواز الإشارة إليه بين العلماء، الا ما حكي عن طاوس وحده، ولا يصح؛ لأن الإشارة في الصلاة جائزةٌ، ففي حال الخطبة أولى.[4]

السادس عشر: السلام بالإشارة

الأصل في السلام النطق باللسان، وأما الإشارة باليد دون نطق اللسان فقد جاء النهي عن ذلك.

فعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: " لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَشَبَّهَ بِغَيْرِنَا، لاَ تَشَبَّهُوا بِاليَهُودِ وَلاَ بِالنَّصَارَى، فَإِنَّ تَسْلِيمَ اليَهُودِ الإِشَارَةُ بِالأَصَابِعِ، وَتَسْلِيمَ النَّصَارَى الإِشَارَةُ بِالأَكُفِّ "[5]

---

[1] البخاري(٤٤١٨)، مسلم (٢٧٦٩)

[2] البخاري(٩٣٤)، مسلم (٨٥١)

[3] الأذكار للنووي (ص: ٢٥١)

[4] فتح الباري لابن رجب (٨/ ٢٧٥)

[5] أخرجه الترمذي(٢٦٩٥)، والقضاعي في مسند الشهاب(١١٩١)، والطبراني في الأوسط(٧٣٨٠)، وابن المقرئ(٣٩٧) وحسنه اللباني في صحيح الجامع(٥٤٣٤) وانظر الصحيحة(٢١٩٤)

والمعنى: لا تشبهوا بهم جميعًا في جميع أفعالهم خصوصًا في هاتين الخصلتين، ولعلهم كانوا يكتفون في السلام أو رده أو فيهما بالإشارتين من غير نطق بلفظ السلام الذي هو سنة آدم وذريته من الأنبياء والأولياء.[1]

وعَن جَابر بن عبد الله أَن رَسُول الله ﷺ قَالَ: " لَا تسلموا تَسْلِيم الْيَهُود وَالنَّصَارَى فإِن تسليمهم بالأكف والرؤوس وَالْإِشَارَة"[2]

والنهي عن السلام بالإشارة مخصوص بمن قدر على اللفظ حسًّا وشرعًا وإلا فهي مشروعة لمن يكون في شغل يمنعه من التلفظ بجواب السلام كالمصلي والبعيد والأخرس وكذا السلام على الأصم[3].

قال النووي: وأما الحديث الذي رويناه في كتاب الترمذي عن أسماءَ بنت يزيد " أن رسول الله ﷺ مرّ في المسجد يوماً، وعصبةٌ من النساء قعود، فألوى بيده بالتسليم "[4] فهذا محمول على أنه ﷺ جمع بين اللفظ والإِشارة، يدلّ على هذا أن أبا داود روى هذا الحديث[5]، وقال في روايته: " فسلم علينا ".[6]

السابع عشر: السلام والرد على غير المسلم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي

---

[1] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧/ ٢٩٤٦)

[2] أخرجه النسائي في عمل اليوم(٣٤٠) باللفظ المذكور . وأخرجه أبو يعلى(١٨٧٥)، والطبراني في الأوسط(٤٤٣٧) ولفظه :"تسليم بإصبع واحدة تشير بها فعل اليهود" جميعًا من طرق عن ثور بن يزيد عن أبي الزبير عن جابر.

وجود إسناده ابن حجر كما في الفتح (١١/ ١٩)، ويشهد له حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .وانظر السلسلة الصحيحة (١٧٨٣)

وأخرجه البيهقي في الشعب (٨٩١١) ولفظه" لا تسلموا تسليم اليهود و النصارى فإن تسليمهم إشارة بالكفوف و الحواجب" وذكر الحواجب منكر: فيه طلحة بن زيد : متروك.

[3] السلام على الأصم والبعيد بحيث أنه لا يسمع التسليم يجوز السلام عليه إشارة ويتلفظ مع ذلك بالسلام. فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٤،١٩)

[4] أحمد(٢٧٥٨٩)، الترمذي(٢٦٩٧)

[5] أبو داود(٥٢٠٤)

[6] الأذكار للنووي (ص: ٢٤٦) وانظر: جلباب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة: للألباني (ص: ١٩٤)

طَرِيقٍ، فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ"[1]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا وَعَلَيْكُمْ"[2]

وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: اسْتَأْذَنَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا عَائِشَةُ "إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ" قَالَتْ: أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: "قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ"[3]

في ضوء هذه الجملة من الهدي النبوي اختلف أهل العلم في حكم ابتداء أهل الكتاب بالسلام والرد عليهم.

قال النووي: اختلف العلماء في رد السلام على الكفار وابتدائهم به فمذهبنا تحريم ابتدائهم به ووجوب رده عليهم بأن يقول "وعليكم" أو "عليكم" فقط ،ودليلنا في الابتداء قوله ﷺ "لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ" وفي الرد قوله ﷺ " فقولوا وعليكم" وبهذا الذي ذكرناه عن مذهبنا قال أكثر العلماء وعامة السلف. وذهبت طائفة إلى جواز ابتدائنا لهم بالسلام روي ذلك عن ابن عباس وأبي أمامة وابن أبي محيريز وهو وجه لبعض أصحابنا حكاه الماوردى لكنه قال يقول "السلام عليك" ولا يقول "عليكم" بالجمع واحتج هؤلاء بعموم الأحاديث وبإفشاء السلام، **وهي حجة باطلة لأنه عام مخصوص** بحديث "لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ" والمراد منع ابتدائهم بالسلام المشروع فأما لو سلم عليهم بلفظ يقتضي خروجهم عنه كأن يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فهو جائز كما كتب ﷺ إلى هرقل وغيره سلام على من اتبع الهدى.[4]

وإذا سمع المسلم الكتابي يقول: (السلام عليكم) ، فهل نرد عليه بـ(وعليكم) عملاً بظاهر الحديث، أم نرد عليه سلامه ونقول: (وعليكم السلام)؟

---

[1] مسلم(٢١٦٧)

[2] البخاري(٦٢٥٨)، مسلم (٢١٦٣)

[3] البخاري(٦٢٥٦)،مسلم (٢١٦٥)

[4] فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٩)

الجواب: الظاهر من الحديث الاقتصار في الرد على "وعليكم" كما صرحت بذلك الأحاديث وذهب بعض أهل العلم إلى أنه إذا تحققنا من لفظ السلام ولم نشك فيه فإنه يرد عليهم بقوله "وعليكم السلام".

قال ابن القيم: فلو تحقق المسامع أن الذي قال له: سلام عليكم لا شك فيه، فهل له أن يقول: وعليك السلام، أو يقتصر على قوله وعليك؟ فالذي تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة أن يقال له، وعليك السلام. فإن هذا من باب العدل، والله تعالى يأمر بالعدل والإحسان، وقد قال تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا } [النساء: ٨٦]. فندب إلى الفضل، وأوجب العدل ولا ينافي هذا شيئاً من أحاديث الباب بوجه ما فإنه ﷺ إنما أمر بالاقتصار على قول الراد (وعليكم) بناء على السبب المذكور الذي كانوا يعتمدونه في تحيتهم، وأشار إليه في حديث عائشة – رضي الله عنها – فقال: (ألا تريننى قلت: وعليكم، لما قالوا: السّام عليك) ثم قال: (إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم). والاعتبار وإن كان لعموم اللفظ فإنما يعتبر عمومه في نظير المذكور لا فيما يخالفه. قال الله تعالى {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ}. فإذا زال السبب، وقال الكتابي: (سلام عليكم ورحمة الله) فالعدل في التحية أن يرد عليه نظير سلامه.[1]

لكن هذا الكلام منه رحمه الله تعالى فيه نظر، لأن النبي ﷺ لم يفصل في الجواب كما فصل في البيان لعائشة رضي الله عنها

قال النووي: وحكى الماوردي وجهاً أنه يقول في الردّ عليهم إذا ابتدؤوا: وعليكم السلام، ولكن لا يقول: ورحمة الله، وهذا الوجه شاذ ومردود.[2]

ولكن ماذا لو دعت الحاجة للسلام على أهل الكتاب، فهل يجوز السلام عليهم؟

---

[1] أحكام أهل الذمة (١/ ٤٢٦)

[2] الأذكار (ص: ٢٥٣)

الجواب: الحديث السابق ظاهر في المنع، ولكن إن احتيج لذلك، فليكن بغير السلام، ككيف أصبحت، أو كيف أمسيت ونحو ذلك. قال ابن مفلح: قال الشيخ تقي الدين: إن خاطبه بكلامٍ غير السلام مما يؤنسه به، فلا بأس بذلك.[1]

قال النووي: قال أبو سعد المتولي: لو أراد تحية ذمي، فعلها بغير السلام، بأن يقول: هداك الله، أو أنعم الله صباحك.

قال النووي: هذا الذي قاله أبو سعد لا بأس به إذا احتاج إليه، فيقول: صُبحت بالخير، أو السعادة، أو العافية، أو صبحك الله بالسرور، أو بالسعادة والنعمة، أو بالمسرة، أو ما أشبه ذلك. وأما إذا لم يحتج إليه، فالاختيار أن لا يقول شيئاً.[2]

التاسع عشر: السلام على مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين.

إذا مر المسلم على مجلس فيه مسلمون وغيرهم، فإنه لا بأس أن يسلم ويقصد بسلامه المسلمين، دل على هذا فعل الرسول الأمين ﷺ.

فعن أسامة بن زيد أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَكِبَ حِمَارًا، عَلَيْهِ إِكَافٌ تَحْتَهُ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ، وَأَرْدَفَ وَرَاءَهُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، وَهُوَ يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فِي بَنِي الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ، وَذَلِكَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، حَتَّى مَرَّ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلاَطٌ مِنَ المُسْلِمِينَ وَالمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَاليَهُودِ، وَفِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، وَفِي المَجْلِسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتِ المَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ، خَمَّرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: لاَ تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ وَقَفَ، فَنَزَلَ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ...."[3]

قال النووي: فيه جواز الابتداء بالسلام على قوم فيهم مسلمون وكفار وهذا مجمع عليه.[4]

قال ابن العربي: وكذلك لو كان مجلس جمع أهل السنة والبدعة سلم ونوى أهل السنة وكذلك لو كان فيه أولياء وأعداء وعدول وظلمة خص الأولياء والعدول بسلامه وترك الباقين.[1]

---

[1] الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/ ٣٦٩).

[2] الأذكار للنووي (ص: ٢٥٤).

[3] البخاري(٦٢٥٤)، مسلم (١٧٩٨).

[4] شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٥٨).

خامسًا: آداب السلام

للسلام آداب كثيرة نذكر منها:-

أولًا: السنة أن المسلِّم يبدأ بالسلام قبل كل كلام:

قال النووي: الأحاديث الصحيحة وعمل سلف الأمة وخلفها على وفق ذلك مشهورة، فهذا هو المعتمد في دليل الفصل.[٢]

ولماذا كان السلام قبل الكلام؟ لأن في الابتداء بالسلام إشعارًا بالسلام، وتفاؤلاً بالسلامة، وإيناسًا لمن يخاطبه، وتبركًا بالابتداء بذكر الله.[٣]

ثانيًا: المسارعة في البدء بإلقاء السلام

فعن أبي أُمامةَ، قال: قال رسول الله ﷺ "إنَّ أولى النَّاسِ بالله مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلام"[٤]

إن الذي يبتدئ ملاقيه بالسلام إنما يشعره بالأمن وعدم الخوف، ذلك أن السلام أمان وإخاء والتزام

أي أقربهم من الله بالطاعة من بدأ أخاه المسلم بالسلام عند ملاقاته لأنه السابق إلى ذكر الله والسلام تحية المسلمين وسنة المرسلين.[٥]

حتى وإن كانت متخاصمين. فعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: "لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ"[٦]

فينبغي لكل واحد من المتلاقين أن يحرص على أن يبتدئ بالسلام.[٧]

---

[١] عارضة الأحوذي (١/ ١٨٦)

[٢] الأذكار للنووي (ص: ٢٥٠) أما حديث جابر بن عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " السَّلاَمُ قَبْلَ الكَلاَمِ". أخرجه الترمذي(٢٦٩٩) وقال: هَذَا حَدِيثٌ مُنْكَرٌ. وانظر السلسلة الضعيفة(١٧٣٦)

[٣] فيض القدير (٤/ ١٤٩)

[٤] أبو داود(٥١٩٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(٣٣٨٢).

[٥] فيض القدير (٢/ ٤٤١).

[٦] البخاري(٦٢٣٧)، مسلم (٢٥٦٠).

[٧] الأذكار للنووي (ص: ٢٥٠). ويدخل فيه من مر على من ظن أنه إذا سلم عليه لا يرد عليه فإنه يشرع له السلام ولا يتركه لهذا الظن لأنه قد يخطئ.

ثالثًا: يسلم الصغير على الكبير ،والماشي على القاعد ،والقليل على الكثير ، والراكب على الماشي.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الكَبِيرِ، وَالمَارُّ عَلَى القَاعِدِ، وَالقَلِيلُ عَلَى الكَثِيرِ "

وفي لفظ :" يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى المَاشِي، وَالمَاشِي عَلَى القَاعِدِ، وَالقَلِيلُ عَلَى الكَثِيرِ "[1]

وهذا الذي جاء به الحديث من تسليم الراكب على الماشي، والقائم على القاعد، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير، كله للاستحباب، فلو عكسوا جاز وكان خلاف الأفضل.[2]

قال ابن حجر: وإذا تساوى المتلاقيان من كل جهة فكل منهما مأمور بالابتداء وخيرهما الذي يبدأ بالسلام، كما في حديث المتهاجرين.[3]وأخرج البخاري في الأدب المفرد بسند صحيح من حديث جابر قال "الماشيان إذا اجتمعا فأيهما بدأ بالسلام فهو أفضل"[4] ، وأخرج أبو عوانة وابن حبان في صحيحيهما والبزار من وجه آخر عن ابن جريج الحديث بتمامه مرفوعًا بالزيادة.[5]

رابعًا: إذا كان هناك ماشيان ثم حال بينهما حائل ، كشجرة أو جدار ونحو ذلك ، فإنه يشرع لهما السلام إذا التقيا مرة أخرى ،ولو تكرر ذلك مرات.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قال رسول الله ﷺ: "إِذَا لَقِيَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَإِنْ حَالَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ أَوْ جِدَارٌ، أَوْ حَجَرٌ ثُمَّ لَقِيَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ أَيْضًا"[6]

قال النووي: فينبغي أن يُسلِّم ولا يتركه لهذا الظنّ، فإنّ السلامَ مأمورٌ به، والذي أُمِرَ به المارّ أن يُسلّم، ولم يؤمر بأن يحصل الردّ، مع أن الممرور عليه قد يخطئ الظنّ فيه ويردّ.

وأما قول مَن لا تحقيق عنده: إن سلامَ المارّ سبب لحصول الإثم فحق الممرور عليه، فهو جهالة ظاهرة، وغباوة بيِّنة، فإن المأمورات الشرعية لا تسقط عن المأمور بها بمثل هذه الخيالات، ولو نظرنا إلى هذا الخيال الفاسد لتركنا إنكار المنكر على مَن فعله جاهلاً كونه منكراً، وغلب على ظننا أنه لا ينزجر بقولنا، فإن إنكارنا عليه، وتعريفنا له قبحه يكون سبباً لإثمه إذا لم يقلع عنه، ولا شكّ في أنَّا لا نترك الإنكار بمثل هذا، ونظائر هذا كثيرة معروفة، ويُستحبّ لمن سلَّم على إنسان فلم يَرُدَّ عليهِ أن يقول له بعبارة لطيفة: ردُّ السلام واجبٌ، فينبغي لك أن تردّ عليّ ليسقطَ عنك الفرضُ. الأذكار للنووي (ص: ٢٥٨)، فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٠)

[1] البخاري(٦٢٣١، ٦٢٣٢)، مسلم (٢١٦٠)

[2] شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٤١)

[3] البخاري(٦٢٣٧)، مسلم (٢٥٦٠).من حديث أبي أيوب.

[4] الأدب المفرد(٩٩٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١٤٦)

[5] فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٦)

[6] أبو داود(٥٢٠٠)، وأبو يعلى (٦٣٥٠)،وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(١٨٦).

ويشهد له حديث المسيء صلاته المشهور عن أبي هريرة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرَدَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ السَّلاَمَ، فَقَالَ: "ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ"، فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: "ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ" ثَلاَثًا.[1]

ففيه حث على إفشاء السلام، وأن يكرر عند كل تغير حال، ولكل جاء وغاد.[2]

وعلى هذا عمل الصحابة فعَنْ أَنَسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَمَاشَوْنَ، فَإِذَا اسْتَقْبَلَتْهُمْ شَجَرَةٌ أَوْ أَكَمَةٌ، فَتَفَرَّقُوا يَمِينًا وَشِمَالًا، ثُمَّ الْتَقَوْا مِنْ وَرَائِهَا، سَلَّمَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ"[3]

خامسًا: عدم تخصيص أحد من الجالسين بالسلام: فإن هذا من شأنه يوغر صدور الجالسين، ويزرع البغض والحقد. لأن القصد بمشروعية السلام تحصيل الألفة، وفي التخصيص إيحاش لغير من خص بالسلام.[4]

سادسًا: تعميم السلام على من يعرفه المرء أو لا يعرفه.

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ: "تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ"[5]

ومعنى تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف أي تسلم على كل من لقيته عرفته أم لم تعرفه ولا تخص به من تعرفه كما يفعله كثيرون من الناس ثم إن هذا العموم مخصوص بالمسلمين فلا يسلم ابتداء على كافر.[6]

ففي هذا الحديث الحث على إفشاء السلام ونشره بين الناس، لما فيه من المصالح العظيمة، لعل من أعظمها: التأليف بين المسلمين، وسلامة قلوبهم لبعض، وضده السلام على الخاصة فعل غير

---

[1] البخاري(٧٩٣)، مسلم (٣٩٧).

[2] شرح المشكاة للطيبي (١٠/ ٣٠٤٥)

[3] عمل اليوم والليلة لابن السني (٢٤٥٦) وصحح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٣٦٣)

[4] فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٨)

[5] البخاري(٢٨)، مسلم (٣٩)

[6] شرح النووي على مسلم (٢/ ١٠)

محمود، بل إنه – أعنى سلام الخاصة – من علامات الساعة، ففي حديث عبدالله بن مسعود أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال : "إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، إِذَا كَانَتِ التَّحِيَّةُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ"[1]

سابعًا: الجهر بإلقاء السلام وكذلك الرد.

فعَنْ ثَابِتِ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ: أَتَيْتُ مَجْلِسًا فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، فَقَالَ: "إِذَا سَلَّمْتَ فَأَسْمِعْ، فَإِنَّهَا تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً"[2]

قال النووي: والمستحبّ أن يرفع صوته رفعاً يسمعه به المسلَّم عليه أو عليهم سماعاً محققاً، وإذا تشكك في أنه يسمعهم، زاد في رفعه، واحتاط واستظهر، أما إذا سلَّم على أيقاظ عندهم نيام، فالسنّة أن يخفضَ صوتَه بحيث يَحصل سماعُ الأيقاظ ولا يستيقظ النيام.[3]

ثامنًا: إلقاء السلام برفق ولين وخفض صوت على قوم فيهم نيام.

بحيث لا يُقلقهم ولا يوقظهم، وفي هذا أدب نبويٌ رفيع، حيث يُراعى فيه حال النائم فلا يكدر عليه نومه، وفي الوقت نفسه لا تفوت فضيلة السلام. كما في حديث المقداد قال : "فَيَجِيءُ النبي ﷺ مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيمًا لَا يُوقِظُ نَائِمًا، وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ.."[4]

قال النووي: هذا فيه آداب السلام على الأيقاظ في موضع فيه نيام أو من في معناهم وأنه يكون سلامًا متوسطا بين الرفع والمخافتة بحيث يسمع الايقاظ ولا يهوش على غيرهم.[5]

تاسعًا: تكرار السلام ثلاثاً ،إذا كان الجمع كثيراً ،أو شك في سماع المُسَلَّم عليه.

فعَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ "إِذَا سَلَّمَ سَلَّمَ ثَلاَثًا، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلاَثًا"[6]

وهذا إذا كان الجمع كثيرًا ولم يسمع بعضهم وقصد الاستيعاب وكذا لو سلم وظن أنه لم يسمع فتسن الإعادة فيعيد مرة ثانية وثالثة ولا يزيد على الثالثة.[7]

---

[1] ابن أبي شيبة في المسند(٢١٠)، أحمد (٣٦٦٤) وصحح إسناده الحافظ في الفتح (١١/ ٢١)

[2] البخاري في الأدب المفرد(١٠٠٥) وصحح إسناده الحافظ في الفتح (١١/ ١٨)

[3] الأذكار للنووي (ص: ٢٤٥)

[4] مسلم (٢٠٥٥)

[5] شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٤)

[6] البخاري(٩٤)

[7] الأذكار للنووي (ص: ٢٤٥)،فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٧)

عاشرًا: رد السلام على من حمل إليه السلام والمحمول إليه.

فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ لَهَا: "يَا عَائِشَةُ هَذَا جِبْرِيلُ يَقْرَأُ عَلَيْكِ السَّلاَمَ"، فَقَالَتْ: وَعَلَيْهِ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، تَرَى مَا لاَ أَرَى، تُرِيدُ النَّبِيَّ ﷺ.[1]

قال ابن حجر: قال النووي: في هذا الحديث مشروعية إرسال السلام ويجب على الرسول تبليغه لأنه أمانة وتعقب بأنه بالوديعة أشبه والتحقيق أن الرسول إن التزمه أشبه الأمانة وإلا فوديعة والودائع إذا لم تقبل لم يلزمه شيء قال وفيه إذا أتاه شخص بسلام من شخص أو في ورقة وجب الرد على الفور ويستحب أن يرد على المبلغ.

قال: ولم أر في شيء من طرق حديث عائشة أنها ردت على النبي ﷺ فدل على أنه غير واجب.[2] فيستفاد منه رد السلام على من أرسل السلام وعلى من بلغه.[3]

حادي عشر: السلام على القوم عند الخروج من المجلس: فكما أنه يسن السلام عند القدوم على المجلس، فكذلك من السنة أن يلقى السلام عند مفارقة ذلك المجلس.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ فَلْيُسَلِّمْ فَلَيْسَتِ الأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الآخِرَةِ".[4]

قال الطيبي: فكما أن التسليمة الأولى إخبار عن سلامتهم من شره عند الحضور فكذلك الثانية إخبار عن سلامتهم من شره عند الغيبة، وليست السلامة عند الحضور أولى من السلامة عند الغيبة، بل الثانية أولى.[5]

ثاني عشر: التسليم عند الاستئذان ودخول البيوت.

قال الله تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النور: ٢٧]

---

[1] البخاري(٣٢١٧)

[2] فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٨)، وانظر: شرح النووي على مسلم (٨/ ١١٢)

[3] فتح الباري لابن حجر (٧/ ١٣٩).

[4] أحمد (٧٨٥٢)، أبو داود(٥٢٠٨)، الترمذي(٢٧٠٦) وصححه الألباني في الصحيحة(١٨٣).

[5] شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن (١٠/ ٣٠٤٩).

قال ابن كثير: هذه آداب شرعية، أدب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان أمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأنسوا، أي: يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده.[1]

وعَنْ رِبْعِيٍّ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَجُلٌ مَنْ بَنِي عَامِرٍ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتٍ فَقَالَ: أَلِجُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِخَادِمِهِ: " اخْرُجْ إِلَى هَذَا فَعَلِّمْهُ الِاسْتِئْذَانَ، فَقُلْ لَهُ: قُلِ السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ؟ " فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ؟ فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَدَخَلَ قال الله تعالى {فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [النور: ٦١].[2]

---

[1] تفسير ابن كثير (٦/ ٣٦).

[2] البخاري في الأدب المفرد(١٠٨٤) وابن أبي شيبة (٢٥٦٧٢)، أبو داود(٥١٧٧) وصححه الألباني في الصحيحة(٨١٨)

رابعا: السيرة النبوية

غزوة تبوك دروس وعبر

توطئة:

إن في دراسة التاريخ ومعرفة سير السابقين لفوائد كثيرة، فإذا وقف المرء على ما كانوا فيه من العزة والقوة بدينهم، فإن هذا يبث في القلب سروراً عظيماً، وأنساً وفرحاً، وهذا الأنس والسرور يبعث العبد على دوام السير إلى الله عزَّ وجلَّ، وبذل الجهد في طلبه، وابتغاء مرضاته، والتلذذ بعبادته وطاعته، والتمسك بما كان عليه سلفنا الصالح حتى يدفعنا ذلك إلى الوصول إلى ما وصلوا إليه من خلال دراسة الأسباب التي أوصلتهم إلى ما كانوا عليه.

فما أحوجنا في هذا الزمان العصيب للتعرف على أخبارهم.

واليوم موعدنا مع غزوة غزوات الرسول ﷺ، وهي غزوة تبوك، فالعَيْش في سيرته ﷺ عَيْشٌ رَغِيد سعيد؛ فيه هِداية ونور وحبور وبِشْر وسرور، وما أحوجنا ونحن في هذه الأيام أن نخترق أربعة عشر قرناً؛ لنعيش يوماً من أيام الرسول ﷺ، بل ساعة من سُوَيْعاته الثمينة؛ لنأخذ العِبرة والدروس من تلك الساعة[1].

أسبابها:

كان سببها أن النبي ﷺ بلغه أن هرقل ملك الروم ومن عنده من متنصِرة العرب – قد عزموا على قصده، وقد رزق هرقل أصحابه لسنة[2] وأجلبت معه جملة من قبائل العرب مثل: لخْم، وجُذام، وعاملة، وغسان وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها.

فتجهز النبي ﷺ والمسلمون وساروا إلى الروم، وكان الحر شديدًا، والبلاد مجدبة، والناس في عسرة، وكانت الثمار قد طابت، فأحب الناس المقام في ثمارهم، فتجهزوا على كره، فكان ذلك الجيش يسمى جيش العسرة[3].

مظاهر العُسر فيها:

---

[1] مقتبس من دروس للشيخ علي القرني (٢٢/ ٢).

[2] أي: أعطاهم ما يكفيهم لمدة سنة.

[3] الكامل في التاريخ لابن الأثير(٢/ ١٤٥).

لم يكن الخروج إلى تبوك بالأمر السهل بل كان عسيرًا بمعنى الكلمة كما وصف الله هذه الغزوة بقوله: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١١٧]

قال عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب خرجوا في غزوة تبوك الرجلان ، والثلاثة على بعير واحد وخرجوا في حر شديد ، فأصابهم يوما عطش شديد حتى جعلوا ينحرون إبلهم ، فيعصرون أكراشها ، ويشربون ماءها ، فكان ذلك عسرة من الماء ، وعسرة من الظهر ، وعسرة من النفقة"[1].

ومن مظاهر العُسر في هذه الغزوة:

١- ضيق الحال والمال:

كانت المدينة المنورة آنذاك تعيش ضائقة اقتصادية وجدب قد حلَّ بالبلاد، ولم تجن الثمار منذ فترة، وقد وافق الخروج إلى هذه الغزوة جني الثمار وموسم الحصاد، والناس يحبون المُقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الخروج في الحال من الزمان الذي هم عليه[2].

٢- شدة الحر:

كانت هذه الغزوة في شهر رجب سنة ٩هـ من الهجرة في آخر شهور الصيف وقد كان الحر شديد جدًا حتى إن الواحد منهم يظن أن عنقه سينقطع من شدة الحر والعطش، قال ابن عباس رضي الله عنه، قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: حدثنا من شأن العسرة، قال: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلا، أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء، فلا يرجع حتى نظن أن رقبته ستنقطع[3].

٣- بُعد المسافة بين المدينة وتبوك:

---

[1] تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٦٩).

[2] البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ١٤٦) بتصرف.

[3] أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٣٨٣).

كانت المسافة بين المدينة وتبوك تصل إلى ما يزيد عن سبعمائة (٧٠٠) كيلو متر بالقياسات الحديثة، ولم تكن الطرق ممهدة أو مرصوفة كما هو الحال في زماننا...لا! بل كان الأمر مختلف، فكان مسيرهم على البعير والأقدام في صحراء قاحلة مقفرة جرداء حرها شديد لا زرع بها ولا ماء.

٤-قلة العدة والعتاد:

كانت العرب آنذاك تعرف الروم وقوتها وجلادتها فهي أكبر دولة في العالم في ذلك الوقت، وما كان العرب يتخيلون رؤيتهم فما بالك بمحاربتهم ومقاتلهم وهم من هم في الحروب والعدد والعتاد، ويزيد على ذلك أن حلفاء الروم من العرب قد اتحدوا معهم وخرجوا في جمع غفير لقتال المسلمين، ولما جاءت الأنباء للنبي ﷺ تأهب إليهم وخرج في أصحابه وكان عددهم يومئذ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ كما أخبر كعب بن مالك في قصة تخلفه[١].

ويزيد على ذلك قلة زادهم وطعامهم فقد أصيبوا في هذه الغزوة بمجاعة وعطش شديد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، قالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا، فأكلنا وادهنا، فقال رسول الله ﷺ: "**افعلوا**".. وذكر الحديث[٢].

٥- ظهور طائفة من المنافقين والمشككين:

بدأت هذه الطائفة من المنافقين ببناء صورة مسجد قريبًا من مسجد قباء وأرادوا أن يصلي لهم رسول الله ﷺ فيه؛ حتى يروج لهم ما أرادوه من الفساد والكفر والعناد، فعصم الله رسوله ﷺ من الصلاة فيه، وذلك أنه كان على جناح سفر إلى تبوك، فلما رجع منها فنزل بذي أوان- مكان بينه وبين المدينة ساعة - نزل عليه الوحي في شأن هذا المسجد، وهو قوله تعالى: { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ} [التوبة: ١٠٧] الآية.

---

[١] القصة بكمالها أخرجها البخاري(٤٤١٨)، ومسلم(٧١٩٢).

[٢] أخرجه مسلم(٤٥).

وأما قوله: "**ضِرَارًا**" فلأنهم أرادوا مضاهاة مسجد قباء، "**وَكُفْرًا**" بالله لا للإيمان به، "**وَتَفْرِيقًا**" للجماعة عن مسجد قباء[1].

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر، زهادة في الجهاد، وشكا في الحق، وإرجافا برسول الله ﷺ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم: {وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [التوبة: ٨١، ٨٢]

واستمر المنافقون والمشككون على هذه الحال وطوال مدة الغزوة حتى أنزل الله ما يفضحهم فأنزل سورة براءة تخبر عن كيدهم ومكرهم[2].

أحداث الغزوة:

أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا، ومفازا وعدوا كثيرا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان.

وذات يوم والنبي ﷺ في جهازه قال للجد بن قيس أحد بني سلمة: يا جد، هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني؟ فو الله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: قد أذنت لك. ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [التوبة: ٤٩]

ثم إن رسول الله ﷺ جدَّ في سفره، وأمر الناس بالجهاز والانكماش، وحض أهل الغنى على النفقة وَالْحُمْلانِ في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، فجاء أبوبكر بماله كله

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير(٧/ ١٨٧).

[2] انظر سيرة ابن هشام (٢/ ٥١٧) بتصرف.

وجاء عمر بنصفه وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة، لم ينفق أحد مثلها، وتتابع الناس في الإنفاق وتسارعوا فاستبشر النبي ﷺ ودعا لهم.

وجاء رجال من المسلمين رسول الله ﷺ، وهم البكاءون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، فاستحمَلوا رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون.

وجاءه المعذرون من الأعراب، فاعتذروا إليه، فلم يعذرهم الله تعالى.

ثم استتب برسول الله ﷺ سفره، وأجمع السَير، وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية عن رسول الله ﷺ، حتى تخلفوا عنه، عن غير شك ولا ارتياب، منهم: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وأبو خيثمة، وكانوا نفر صدق، لا يتهمون في إسلامهم.

فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع. واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري.

ولما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أبي، فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب.

وخلَّف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه، على أهله، وأمره بالإقامة فيهم.

ومضى رسول الله ﷺ على سفره، ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أياما إلى أهله في يوم حار، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك.

ومر الجيش الإسلامي في طريقه إلى تبوك بالحجر- ديار ثمود الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ، أي وادي القُرى- فاستقى الناس من بئرها، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ: "لا تشربوا من مائها ولا تتوضأوا منه للصلاة. وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئا، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها ناقة صالح عليه السلام"[1].

[1] الحديث أصله عند أحمد في المسند(٥٩٨٤).

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال؛ لما مر النبي ﷺ بالحجر قال: "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين، ثم قنع رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادي"[1].

ثم مضى رسول الله ﷺ سائرًا، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه، حتى قيل: يا رسول الله، قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره، فقال: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه، وتلوم أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذر فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده.

وسار النبي ﷺ وأصحابه إلى أن نزلوا بتبوك، فعسكر هناك، وهو مستعد للقاء العدو، وقام رسول الله ﷺ فيهم خطيبا، فخطب خطبة بليغة، أتى بجوامع الكلم، وحض على خير الدنيا والآخرة، وحذر وأنذر، وبشر وأبشر، حتى رفع معنوياتهم، وجبر بها ما كان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤنة.

وأما الرومان وحلفاؤهم: فلما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم واللقاء، بل تفرقوا في البلاد في داخل حدودهم، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية، في داخل الجزيرة وأرجائها النائية.

وحصل المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة خطيرة، بما لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين.

---

[1] السيرة النبوية لابن كثير (٤/ ١٨)، الرحيق المختوم للمباركفوري(ص: ٣٩٨).والحديث أخرجه البخاري(٤٣٣)، ومسلم(٢٩٨٠).

وجاء يُحنة بن روبة صاحب أيلة، فصالح الرسول ﷺ وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جَرْبَاءَ وأهل أَذْرُحَ ، فأعطوه الجزية، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابا فهو عندهم. وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أُكَيْدِرَ دُومة الجندل في أربعمائة وعشرين فارسًا، وقال له: "إنك ستجده يصيد البقر" فخرج أكيدر لصيده، فتلقاه خالد في خلية، فأخذه وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فحقن دمه، وصالحه على ألفي بعير، وثمانمائة رأس، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، وأقر بإعطاء الجزية، فقاضاه مع يحنة على قضية دومة وتبوك وأيلة وتيماء.

وأيقنت القبائل التي كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه، فانقلبت لصالح المسلمين، وهكذا توسعت حدود الدولة الإسلامية، حتى لاقت حدود الرومان مباشرة، وشهد عملاء الرومان نهايتهم إلى حد كبير.

ورجع الجيش الإسلامي من تبوك مظفرين منصورين، لم ينالوا كيدًا، وكفى الله المؤمنين القتال، وفي الطريق عند عقبة حاول اثنا عشر رجلا من المنافقين الفتك بالنبي ﷺ، وذلك أنه حينما كان يمر بتلك العقبة كان معه عمار يقود بزمام ناقته، وحذيفة بن اليمان يسوقها، وأخذ الناس ببطن الوادي، فانتهز أولئك المنافقون هذه الفرصة، فبينما رسول الله ﷺ وصاحباه يسيران إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم، قد غشوه وهم متلثمون ، فبعث حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بمحجن كان معه، فأرعبهم الله، فأسرعوا في الفرار حتى لحقوا بالقوم، وأخبر رسول الله ﷺ بأسمائهم، وبما هموا به، فلذلك كان حذيفة يسمى بصاحب سر رسول الله ﷺ، وفي ذلك يقول الله تعالى: {وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا}.

ولما لاحت للنبي ﷺ معالم المدينة من بعيد قال: "هذه طابة، وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه" وتسامع الناس بمقدمه، فخرج النساء والصبيان والولائد يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وكان خروجه ﷺ إلى تبوك في رجب وعوده في رمضان، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يوما.

أقام منها عشرين يومًا في تبوك، والبواقي قضاها في الطريق جيئة وذهوبًا وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﷺ[1].

***الآيات والدلائل النبوية في غزوة تبوك:**

في هذه الغزوة أيد الله عز وجل نبيه ﷺ بآيات ودلائل كثيرة، بها ثبَّت قلوب المؤمنين وردَّ فيها كيد الكائدين والمنافقين، **ومن هذه الدلائل النبوية:**

-إخباره ﷺ بهبوب ريح شديدة:

عن أبي حميد الساعدي قال: "انطلقنا حتى قدمنا تبوك فقال رسول الله ﷺ: ستهب عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقم فيها أحد منكم فمن كان له بعير فليشد عقاله فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيئ"[2].

-خبر أُكيدر دومة الجندل:

بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل، وأخبره فقال: " **إنك ستجده يصيد البقر**"، فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه منظر العين في ليلة مقمرة صافية، وهو على سطح ومعه امرأته، فأتت البقر تحك بقرونها باب القصر، فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله، قالت: فمن يترك مثل هذا؟ قال: لا أحد، فنزل فأمر بفرسه فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له حسان، فخرجوا معهم بمطاردهم فتلقتهم خيل رسول الله ﷺ، فأخذته وقتلوا أخاه حسان، وكان عليه قباء ديباج مخوص بالذهب فاستلبه إياه خالد بن الوليد، فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه عليه، ثم إن خالدا قدم بالأكيدر على رسول الله ﷺ فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، وخلى سبيله، فرجع إلى قريته[3].

-تفجير الماء من عين تبوك بغسل يديه ووجهه ﷺ فيها:

---

[1] سيرة ابن هشام (٢/ ٥١٦-٥٢٧)، والبداية والنهاية لابن كثير (٧/ ١٤٤-١٨١)، والرحيق المختوم (ص: ٣٩٩).

[2] أخرجه مسلم(١٣٩٢).

[3] أخرجه البيهقي السنن الكبرى (١٨٦٤٢)، وانظر سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٦)، و أعلام النبوة للماوردي (ص: ١٢٠).

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك ، فكان يجمع الصلاة، حتى إذا كان يومًا أخر الصلاة، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعا، ثم دخل، ثم خرج بعد ذلك، فصلى المغرب والعشاء جميعا، ثم قال: إنكم ستأتون غدا، إن شاء الله، عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء، قال فسألهما رسول الله ﷺ هل مسستما من مائها شيئا؟ قالا: نعم، فسبهما النبي ﷺ، وقال لهما ما شاء الله أن يقول. قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلا قليلا، حتى اجتمع في شيء، قال وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء منهمر، أو قال: غزير، شك أبو علي أيهما قال، حتى استقى الناس، ثم قال ﷺ يوشك، يا معاذ إن طالت بك حياة، أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنانا[1].

-تكثير الطعام القليل بسبب دعائه ﷺ:

لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة ، قالوا: يا رسول الله ، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا، فأكلنا وادهنا ، فقال رسول الله ﷺ: افعلوا، قال : فجاء عمر، فقال: يا رسول الله، إن فعلت قل الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة ، لعل الله أن يجعل في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: نعم، قال: فدعا بنطع، فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، قال: ويجيء الآخر بكف تمر، قال : ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، قال: فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة، ثم قال: خذوا في أوعيتكم ، قال : فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه، قال: فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: "**أشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك، فيحجب عن الجنة**"[2].

ظهور سحابة مطيرة لم تجاوز عسكر المسلمين بتبوك بدعائه ﷺ:

---

[1] أخرجه مسلم(٦٠١١).

[2] أخرجه مسلم(١٤٨).

عن ابن عباس: أنه قيل لعمر بن الخطاب: حدثنا عن شأن العسرة. قال: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد. وفيه فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، قد عودك الله في الدعاء خيرًا، فادع. قال: "**أتحب ذلك؟** ". قال: نعم. قال: فرفع يديه ﷺ، فلم يرجعهما حتى أظلت سحابة، ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[1].

أبرز المواقف في الغزوة والدروس المستفادة:

غزوة تبوك كانت من أكبر الغزوات في التاريخ الإسلامي وكانت فيها العديد من المواقف والدروس والعبر، **ومن أبرز المواقف والدروس المستفادة منها:**

***موقف المتصدقين:**

حينما حث النبي ﷺ على الإنفاق والصدقة فعندها تتابع الصحابة في الإنفاق، فعن عمر بن الخطاب قال: أمر رسول الله ﷺ بالصدقة، فقال عمر: وعندي مال كثير، فقلت: والله لأفضلن أبا بكر، قال: فأخذت ذلك المال وتركت لأهلي نصفه، فقال النبي ﷺ: " يا عمر: إن هذا مال كثير، فما تركت لأهلك؟ " قال: قلت نصفه، قال: وجاء أبو بكر بمال كثير، فقال له النبي ﷺ: "يا أبا بكر، إن هذا مال كثير، فما تركت لأهلك؟" قال: الله ورسوله[2].

وقد جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار، حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره، فجعل النبي ﷺ يقلبها في حجره ويقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم مرتين[3].

وتتابع الناس في الإنفاق بعد ذلك فأنفق العباس، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، وسعد بن عبادة، وعاصم بن عَدِي وغيرهم نفقات كثيرة.

يستفاد من هذا الموقف:

١-فضل الصحابة رضوان الله عليهم.

٢-عند الشدائد تظهر الرجال.

---

[1] أخرجه ابن حبان في صحيحه(**١٣٨٣**)، وقال الأرناؤوط: " إسناده صحيح"، وقال ابن كثير: " إسناده جيد، ولم يخرجوه" البداية والنهاية(٧/ ١٦٠).

[2] فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (**٥٢٧**).

[3] أخرجه الترمذي(**٣٧٠١**).

***موقف البكائين:**

البكاؤون: هم جماعة من فقراء المسلمين ليس معهم زاد ولا راحلة جاءوا إلى رسول الله ﷺ يسألوه أن يحملهم فلم يجد فتولوا من عنده زهم يبكون فخلد الله ذكرهم وسماهم محسنين فقال: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [التوبة: ٩١ - ٩٣]

وكان من بين هؤلاء البكائين صحابي جليل اسمه: عُلْبَةُ بْنُ زَيْدٍ، خرج عُلْبَةُ من عند النبي ﷺ، فلما كان من الليل قام فصلى من ليلته ما شاء الله، ثم بكى، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسول الله ﷺ، ولم تجعل في يد رسول الله ﷺ ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في مال أو جسد أو عرض ثم أصبح مع الناس، فقال رسول الله ﷺ: أين المتصدق هذه الليلة؟

فلم يقم أحد، ثم قال: أين المتصدق؟ فليقم، فقام إليه فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: أبشر فو الذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المقبلة[1].

يستفاد من هذا الموقف:

١-من صدقَ الله صدَقه الله.

٢- رقة قلوب الصحابة وصفاء أرواحهم وولاؤهم ومحبتهم لله ورسوله.

*** موقف أبي خيثمة:**

وكان أبو خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أياما إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه، قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعامًا.

[1] دلائل النبوة للبيهقي(٥/ ٢١٩)، والسيرة النبوية لابن كثير (٤/ ٩).

فلما دخل، قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم، ما هذا بالنصَف! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا، لي زادًا، ففعلتا. ثم قدم ناضحه فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك. وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق، يطلب رسول الله ﷺ، فترفقا، حتى إذا دنوا من تبوك. قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنبا، فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ ففعل حتى إذا دنا. من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة، فقالوا يا رسول الله هو والله أبو خيثمة. فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: أولى لك يا أبا خيثمة ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر، فقال له رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له بخير[1].

يستفاد من هذا الموقف:

١-لا طعم ولا لذة للدنيا في البعد عن منهج الله ومنهج رسوله.

٢-فضل أبي خيثمة وشدة محبته للنبي ﷺ.

*** موقف أبي ذر:**

لا تزال مواقف التضحية والفداء طوال الغزوة، ومن أبرزها موقف أبي ذر رضي الله عنه، وحاله ما قال القائل:

ولست أبا لي حين أقتل مسلمًا على أي حال كان في الله مضجعي

تأخر أبو ذر لأن بعيره هزيل، أبطأ به بعيره، فترك بعيره وأخذ متاعه وحمله على ظهره، وينزل رسول الله ﷺ في بعض منازله على الطريق، وينظر ناظر المسلمين ويقول: {يا رسول الله! رجلٌ يمشي على الطريق وحده، متاعه على ظهره، فقال ﷺ: كن أبا ذر كن أبا ذر فيتأمل الصحابة، فيقولون: هو والله أبو ذرٍ يا رسول الله! فقال ﷺ: رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده}.

[1] سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٠).

وتمضي الأيام على هذه المقولة، وتمضي الأعوام، ويُنْفَى أبو ذر إلى الربذة، ويحضره الموت هناك، وليس معه إلا امرأته وغلامه، وقبل موته أوصاهما: أن يُكَفِّنَاه ويُغَسِّلاه، ويضعاه على الطريق، وأول ركب يمر بهم يقولون: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه.

ويفعلان ذلك، ويأتي عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق؛ ليعتمروا، وما راعهم إلا الجنازة على قارعة الطريق، كادت الإبل أن تطأها، عندها قام غلام أبي ذر وقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، فاندفع عبد الله بن مسعود باكياً يقول: صدق رسول الله ﷺ: {تمشي وحدك وتموت وحدك} ثم نزل هو وأصحابه فدفنوه، ودموعهم تَهْراق على خدودهم.

وليس الذي يجري من العين ماؤها ولكنها روحٌ تسيل فتَقْطُرُ[1].

يستفاد من هذا الموقف:

١- فضل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه وحرصه على مشاهد الخير مع رسول الله ﷺ.

٢-صدق النبي ﷺ فيما أخبر عن ربه جل وعلا.

*** موقف أبي قتادة:**

عن أبي قتادة رضي الله عنه، قال : خطبنا رسول الله ﷺ، فقال : إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم، وتأتون الماء إن شاء الله غدا ، فانطلق الناس لا يلوي أحد على أحد ، قال أبو قتادة : فبينما رسول الله ﷺ يسير حتى ابهار الليل[2]، وأنا إلى جنبه ، قال : فنعس رسول الله ﷺ، فمال عن راحلته ، فأتيته فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته ، قال : ثم سار حتى تهور الليل[3]، مال عن راحلته ، قال: فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته، قال : ثم سار حتى إذا كان من آخر السحر، مال ميلة هي أشد من الميلتين الأوليين، حتى كاد ينجفل ، فأتيته فدعمته، فرفع

---

[1] المستدرك للحاكم (٤٣٧٣)، دروس للشيخ علي القرني (٢٢/ ٧).

[2] **ابْهارَّ اللّيلُ** أي: انتصف . انظر العين للخليل بن أحمد(٤/ ٤٨).

[3] **تَهَوَّرَ الليلُ**: أي مضى أكثره وانكسر ظلامه. الصحاح في اللغة للجوهري(٢/ ٢٥٩).

رأسه، فقال: من هذا ؟ قلت: أبو قتادة ، قال: متى كان هذا مسيرك مني؟ قلت: ما زال هذا مسيري منذ الليلة، قال: حفظك الله بما حفظت به نبيه[1].

فمات أبو قتادة وهو ابن سبعين سنة، وكأنه ابن خمس عشرة سنة[2].

ويستفاد من هذا الموقف:

١-شدة محبة الصحابة للنبي ﷺ ومخافتهم عليه وفدائهم له.

٢-من حفِظ الله ورسوله ﷺ حفظه الله.

*** مواقف المنافقين المخذلة:**

لا يزال النفاق في هذه الأمة قديما وحديثا، والعجيب أن مواقفهم مخزية ومخذلة ولقد كشف الله كيدهم وفضح أفعالهم في غزوة تبوك حيث أنزل سورة كاملة تتحدث عن مكايدهم حتى يعتبر بذلك المؤمنون ومن مواقفهم المخذلة:

-تشكيكهم في الحق:

قال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر، زهادة في الجهاد، وشكا في الحق، وإرجافا برسول الله ﷺ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم: {وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [التوبة: ٨١، ٨٢][3].

وانطلق رهط من المنافقين يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا! والله لكأنا بكم غدا مقرنين في الحبال، إرجافا وترهيبا للمؤمنين[4].

---

[1] أخرجه مسلم (١٥٠٧).

[2] سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٤٥٠).

[3] سيرة ابن هشام (٢/ ٥١٧).

[4] تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٦٤٢).

وقال زيد بن اللُّصَيْت، وهو الذي قاتل عمر بن الخطاب ﵁ بسوق بني قينقاع وهو في رحل عمارة وعمارة عند رسول الله ﷺ: أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده: إن رجلا قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا، فجاءوا بها.

فرجع عمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفا، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا، للذي قال زيد بن لصيت، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي. فأقبل عمارة على زيد يجأ في عنقه ويقول: إلي عباد الله، إن في رحلي لداهية وما أشعر، اخرج أي عدو الله من رحلي، فلا تصحبني[1].

- إيذائهم للمؤمنين:

ولا تزال أذيتهم للمؤمنين على مر الزمان، ويظهر ذلك في موقفهم من علي بن أبي طالب ﵁، حين خلفه رسول الله ﷺ في أهله فيأتي المنافقون الذين لا يتركون دسائسهم وإرجافهم على مر الأيام يلاحقون أهل الخير والاستقامة، يلمزون ويهمزون ويتندرون[2] ويسخرون -سخر الله منهم- ويستهزئون -والله يستهزئ بهم- يأتون إلى علي رضي الله عنه ويقولون: ما خلفك رسول الله ﷺ إلا استثقالاً لك؟ يريد التخفف منك، وعلي بَشَرٌ، تأثَّر لذلك، ولبس دِرعه، وشَهَرَ سيفه يريد الجهاد في سبيل الله، ويلحق برسول الله ﷺ ويعتنق رسول الله ﷺ ويقول: {يا رسول الله! زَعَم الناس أنك استثقلتني فخلفتني في النساء والصبيان؟ فتهراق دموعه ﷺ

[1] تاريخ الطبري (٣/ ١٠٦)، سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٣).

[2] يقال: تندَّر على فلان: سخر منه.

ويقول: كذبوا يا عليُّ! فاخلفني في أهلك وأهلي، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟! إلا أنه لا نبي بعدي} فيقول بلسان الحال: بلى رضيت، بلى رضيت، وعاد علي رضي الله عنه[1].

وهنا لا بد لنا من وقفة مع صفات المنافقين حتى نحذرها:

وصفات المنافقين تمتلئ بها صفحات القرآن الكريم، وتكثر في أحاديث الرسول ﷺ.

ومن صفاتهم:

١- أنهم يعتادون على الكذب في كل صغيرة وكبيرة.

٢- إثارة الفتن بين صفوف المؤمنين؛ لينشب بينهم الصراع والضغينة.

٣- أنهم يفرحون إذا أصاب المسلمين مصاب أو أذى، ويحزنون إذا حصل لهم خير.

٤- أنهم يتكاسلون عن الصلوات، فلا يصلون الفجر ولا العشاء في جماعة.

٥- أنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون.

٦- أنهم دائمي السخرية من الملتزمين بالدين.

٧- أنهم يتحدثون بغير أدب ولا توقير عن رسول الله ﷺ.

٨- أنهم يكرهون -وأحياناً يسبون- أصحاب الرسول ﷺ.

٩- أنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وينهون الناس عن كل معروف، ويثبطونهم عن فعل كل خير، ويأمرون الناس بفعل المنكر ويشجعونهم على المعاصي.

١٠- أنهم يخلفون الوعد، وينقضون الميثاق.

١١- أنهم يفجرون في الخصام والشقاق.

١٢- أنهم يخونون الأمانة.

١٣- أنهم يتحالفون مع أعداء الأمة ضد إخوانهم المسلمين.

١٤- أنهم يتشبهون بالكفار، ويفخرون بذلك، ويستحيون من الانتماء إلى أمة الإسلام والمسلمين.

---

[1] سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٠)، ودروس للشيخ علي القرني (٢٢/ ٣)، وأصل القصة في صحيح البخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤).

١٥- أنهم يقطعون أرحامهم، ولا يحفظون حقاً لوالد ولا لأخ ولا لابن ولا لعشيرة.

١٦- أنهم يكثرون من الحلف؛ لأنهم يعرفون أن الناس لا يصدقونهم، فيقسمون بسهولة على الكذب[١].

ولم يسلم من إيذائهم أحد من المسلمين حتى وصلت أذيتهم رسول الله ﷺ فحاولوا قتله واغتياله عند عودته من الغزوة، فحفظ الله نبيه ﷺ وعصمه مكر المنافقين:

فعن أبي الطفيل رضي الله عنه، قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر مناديا فنادى: إن رسول الله أخذ العقبة، فلا يأخذها أحد، فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوق به عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل، غشوا عمارا وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: " قُد، قُد " حتى هبط رسول الله ﷺ، فلما هبط رسول الله ﷺ نزل ورجع عمار، فقال: " يا عمار، هل عرفت القوم؟ " فقال: قد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون قال: "هل تدري ما أرادوا؟" قال: الله ورسوله أعلم، قال: "أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه" قال: فسأل عمار رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: نشدتك بالله، كم تعلم كان أصحاب العقبة فقال: أربعة عشر فقال: إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر، فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله، وما علمنا ما أراد القوم، فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد"[٢].

*** موقف كعب بن مالك:**

أصناف الذين تخلفوا عن غزوة تبوك أربعة:

١ - مأمورون بالتخلف منه ﷺ، مثل محمَّد بن مسلمة، وعلي بن أبي طالب، وهؤلاء مأجورون.

٢ - معذورون، وهم الضعفاء والمرضى، وهم مأجورون أيضًا لأنهم قد حبسهم العذر.

٣ - عصاة مذنبون، مثل الثلاثة الذين خُلِّفُوا.

---

[١] السيرة النبوية - راغب السرجاني (٤٣/ ١٥) بتصرف.

[٢] أخرجه أحمد(٢٣٧٩٢)، والبزار(٢٨٠٠)، **وقال الارناؤوط:** "إسناده قوي على شرط مسلم".

٤ - ملومون مذمومون، وهم الأعراب والمنافقون[١].

أبرز مواقف المخلفين موقف الثلاثة الذين خلفوا موقف كعب بن مالك:

وكان النبي ﷺ ذكره وهو جالس في القوم بتبوك فقال: "**ما فعل كعب**" فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه، ونظره في عطفه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا، فسكت رسول الله ﷺ.

ولما عاد النبي ﷺ بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، وجاء دور كعب فلما سلم على النبي ﷺ تبسم تبسم المغضب، ثم قال له: تعال، ما خلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟. فقال: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله، لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق، تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله، ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: "أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك".

هذا حوار كعب باختصار مع النبي ﷺ بعد عودته من تبوك وكان آخر ما قاله النبي ﷺ لكعب بن مالك: "**قم حتى يقضي الله فيك**". ظاهر هذه المقالة أن هناك اختبار وبلاء يقع على كعب رضي الله عنه، وهذا ما حدث بالفعل، ولنعرض الآن مواقف الاختبار وصبر كعب بن مالك وعصمة الله تعالى له:

-بنو سلمة وكعب:

ثار رجال من بني سلمة فتبعوا كعب، فقالوا له: "والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك

[١] صحيح الأثر وجميل العبر من سيرة خير البشر ﷺ (ص: ٢٧٥).

ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك"، قال كعب: " فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي".

-اجتناب الناس لكعب وصاحبيه [مُرَارَةَ بْنُ الرَّبِيعِ العَمْرِيَّ، وَهِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيَّ]:

يقول كعب: نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، ، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

وكان كعب يشهد الصلاة مع المسلمين ويطوف في الأسواق فلا يكلمه أحد، ويأتي رسول الله ﷺ فيسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فلا يرد عليه.

قال كعب: حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فو الله ما رد علي السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار.

-كعب ونبطي الشام:

يقول كعب: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نبطي من أنباط أهل الشأم، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها.

يستفاد من مواقف كعب بن مالك:

١- استحباب رد غيبة المسلم كما فعل معاذ رضي الله عنه.

٢-ملازمة الصدق وإن شق على النفس فإن عاقبته خير قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩]

٣- استحباب ركعتين في المسجد عند القدوم من السفر قبل كل شيء.

٤- يستحب للقادم من سفر إذا كان مقصودا ان يجلس لمن يقصده في موضع بارز كالمسجد ونحوه.

٥- جريان أحكام الناس على الظاهر والله يتولى السرائر.

٦-هجران اهل البدع والمعاصي الظاهرة وترك السلام عليهم تحقيرا لهم وزجرا.

٧-ومنها استحباب البكاء على النفس إذا بدرت منها بادرة معصية وحُق لها أن تبكي.

٨-سرعة امتثال الصحابة لأمر النبي ﷺ .

٩-فضل كعب بن مالك و صاحبيه رضوان الله عليهم .

١٠- استحباب سجود الشكر عند حصول نعمة أو اندفاع نقمة ظاهرتين والتصدق عند ذلك ومنها استحباب التبشير والتهنئة واكرام المبشرين بكسوة ونحوها.

فهرس الموضوعات

أولا: تفسير سورة يوسف (٨٨-١١١) ١
فضيلة الإحسان وحُسن جزائه ٢
عودة القافلة بالبشارة ٦
الرحلة الأخيرة إلى مصر واجتماع الشمل ١٠
رسالة صادقة ودعوة خالصة ١٤
لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ١٩
ثانيا: العقيدة ٢٣
الإيمان بالقضاء والقدر ٢٣
ثالثا: السلام أحكام وآداب ٤٢
المبحث الأول: تعريف السلام ٤٢
المبحث الثاني: مشروعية السلام. ٤٢
المبحث الثالث: فضائل السلام ٤٣
المبحث الرابع: أحكام السلام ٤٧
المبحث الخامس: آداب السلام ٦٢
رابعا: غزوة تبوك دروس وعبر ٦٨
أسبابها: ٦٨
مظاهر العُسر فيها: ٦٨
أحداث الغزوة: ٧١
*الآيات والدلائل النبوية في غزوة تبوك: ٧٥
أبرز المواقف في الغزوة والدروس المستفادة: ٧٧